وأشـــاروا إلى الطريـــق فـــدلوا فلهذا قـد أصـبحوا في البرايـا كل صعب ينـالهم فهـو سـهل

لم يزل ذكـرهم علـى الـدهر يتلـى ولكـــل القلـــوب يجلـــو ويحلـــو

فبـــهم يرفـــع الـــبلاء عـــن الخلْـــ ـــق ويهـــدوا مخافـــة أن يضـــلوا

إلـهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المذنبون بجنابك ورفع ذوو الحاجات قصص فاقتهم إليك نكس العصاة رؤوس الانكسار بين يديك ، انقطعت حجج المقصرين عن الاعتذار إليك ، أرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، وكلهم يرجون الجواز إلى ساحة فضلك ونعمك ، امتدت أيدي السائلين إلى وابل غيث جودك ، تقلقلت قلوب الخائفين من إزعاج وعيدك ، فكيف يجيبون وقد عمّ عفوك ورحمتك سائر عبيدك ؟ إلـهي فمن للسائلين إذا ردوا ، ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك وصدوا ، ومن للمتخلفين إذا قطعوا ، ومن غيرك يقبل التائبين إذا رجعوا . إلـهي وصل العارفون بالمعرفة إليك ، قام المتهجدون للخدمة بين يديك . إلـهي خضع المتكبرون من هيبة جلالك ، خشع المتجبرون لسطوة كمالك ، ارتاح المشتاقون إلى مشاهدة جمالك. إلـهي تقطعت أكباد المحبين في طلابك ، فاز القائمون بطيب خطابك ، ربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقترابك . إلـهي ندم المفرطون على تقصيرهم في خدمتك ، خجل العاصون وأطرقوا حياء من مراقبتك ، أطرق المذنبون من جلال هيبتك ، تمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلـهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن للنائمين ، إلهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلـهي إذا لم تغفر إلا للمطيعين فمن للمذنبين ، إلـهي رد شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، اهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك أدخلهم جميعاً في ظلّ عفوك ورحمتك ، آوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الذي فتح أقفال الصدور بمفاتيح السرور والأفراح ، وخص نسيم السحر بطيب الهبوب فأحيا به القلوب وأروح الأرواح ، سقى بساتين قلوب أوليائه بغيث جوده ونعمائه

فانبسط جزيل عطائه وساح ، انطلق بلابل تمجيدهم على أغصان توحيدهم فأثنت بشكر معبودهم في المساء والصباح ، عطر أزهار أسرارهم بأنفاس أذكارهم ففاح أرجها الفياح ، جمعهم تحت خيمة الليل في حضرة قربه وروّق لهم شراب حبه وسقاهم بكؤوس السماح ، فإذا صفقت أوراق الأشجار وشبب النسيم وغنى الهزار بصوته الرخيم حنّ كل مشتاق إلى عهده القديم وارتاح ، فمنهم من سكر وصحا ، ومنهم من فنى رسمه وانمحى ، ومنهم من هام مترنحاً ، ومنهم من كتم ، ومنهم من باح ، ومنهم من لازم الخضوع والانكسار ، ومنهم من تهتك ولبس ثوب الاشتهار وكلهم في خلوة الأسحار قد مزق الأطمار ، وهتكوا في محبته الأستار ، فسامحهم صاحب الدار وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ : [البقرة : ١٩٨].

إذا غلب الوجد والافتضاح ... لأهل الهوى والجوى لا جناح
فكم في المحبة من هائم ... يطيل النحيب ويبدي النواح
وكم في دجى الليل من سادة ... لهم في الصباح وجوه صباح
وكم في المحبة من كاتم ... ينم عليه نسيم الصباح
فمن باح بالوجد في حبه ... فذاك الذي في هواه استراح
فقم يا لبيب بباب الحبيب ... فثَمَّ طبيب يداوي الجراح
وقم واسهرن في الدجى واعتذر ... إلى الحب واسمع منادي الفلاح
وإن تك بالذنب مستوحشاً ... فهم في الحقيقة أهل السماح

[قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه] : حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام ، فأتيت مكة شرفها الله تعالى فإذا بالناس قد خرجوا يستسقون أوّل يوم وثاني يوم وثالث يوم وأنا معهم فلم يسقوا فتركتهم ومضيت إلى الحجر فدخلت ، فإذا على البلاطة الخضراء شخص أسود نحيل الجسم مصفر اللون ، وعليه خلقتان متزر بإحداهما ومرتد بالأخرى ، وقد بكى وانتحب حتى بلت دموعه ثوبيه ، وهو رافع طرفه إلى السماء ، ويقول :إلهي أخلقت الوجوه كثرة الذنوب والعيوب ومنعت عبيدك القطر من كثرة المعاصي والخطايا ، وأذهبت خلقك بالمحل والقحط وابتليتهم بالجوع والجهد ، وأنت عالم بالأحوال ، فقد قلقت الأطفال ، وهلكت المواشي والعيال ، فأقسمت عليك بجاه محمد ﷺ إلا ما سقيتنا الغيث الساعة ، وقد توسلت بك إليك ، وجعلت معتمدي عليك ، فهب للحاضرين ذنوبهم ولا تؤاخذهم بجرائمهم ، يا رباه يا رباه الساعة الساعة ، قال : فما استتم كلامه حتى تراكمت السحب ، وجادت بالقطر من كل جانب ومكان فجلست أبكي حتى خرج من الحجر فاتبعته حتى عرفت الموضع الذي دخل فيه

فعلمت الباب ورجعت إلى منزلي ، فلم يأخذني نوم طول ليلتي . فلما أصبحت صليت الصبح بغلس ، وأتيت الموضع فدخلت ، فإذا رجل حسن الهيئة فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، وقال هل لك من حاجة يا أبا عبد الرحمن ؟ قلت : نعم ، أريد شراء غلام ، فقال : عندي عشرة غلمان فاختر منهم من شئت فصاح بأحدهما فخرج غلام سمين ، فجعل يصفه لي ، فقلت : ليس من حاجتي ، فعرض آخر وآخر إلى أن عرض العشرة ، وأنا أقول : ليس من حاجتي ، فقال : لم يبق عندي إلا غلام أسود ضعيف الجسم متغير اللون ، إن ضحك الناس بكى ، وإن اشتغل الناس بأشغالهم صلى ، لا ينام الليل ، ينادي في بعض أوقاته بالحسرة والويل لا يصلح لخدمة أهل الدنيا من كثرة الضعف والبلى ، ومع هذا فإن قلبي يحبه ، وقد استبركت بنظره ، فصاح ميمون ، فقال إن شاء الله تعالى ميمون فخرج فنظرته فإذا هو صاحبي ، فقلت : هذا أريد ، فقال : ليس إلى بيعه من سبيل ، قلت : لم تبيعه ؟ قال : قد أنست به ، واستبركت بطلعته ومع هذا إنه قد حمل عني مؤنته ، فوالله ما يأكل عندي شيئاً إلا بعمل الشريط والخوص فيعمل كل يوم بنصف دانق ، فإن باع أفطر وإلا بات طاوياً . وقد أخبرني الغلمان أنه يحيى الليل كله ، فقلت : والله لئن لم تبعنيه لأتيتك بسفيان والفضيل ، فقال : إن كان هذا قضيت حاجتك فاشتريته منه ، وأخذت بيده وسرنا في الطريق فالتفت إليّ ، وقال لي : مولاي ، قلت : لبيك ، فقال : لا تلبني فإن العبد أحق بالتلبية للمولى ، ثم قال : سألتك بالله لم اشتريتني وأنا ضعيف نحل الجسم لا أقوى على الخدمة وقد أخرج سيدي إليك أجود مني ؟ فقلت : والله لا أستخدمك وإنما أكون لك خادماً ، فقال : سألتك بالله إلا ما أخبرتني بحالك معي فأخبرته بالخبر ، فقال لي : ينبغي أن تكون عبداً صالحاً ، فإن لله تعالى في خلقه نجباء وأولياء لا يكشف شأنهم إلا لمن ارتضاه من عباده ، قال فتمشينا إلى أن عبرنا على مسجد ، فقال لي : يا مولاي هل لك أن تأذن لي أن أصلي في هذا المسجد ركعتين ؟ قلت له : الساعة نسير إلى منزل الفضيل بن عياض فتركع فيه ما بدا لك ، قال : وما علمي بأن قد بقي من عمري ما يوصلني إلى منزل الفضيل ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من فتح له باب خير فليتم فإنه لا يدري متى يغلق عنه » . قال : فدخلنا المسجد فركع وركعت وأطال في الصلاة وأنا منتظره ، فلما سلم قال : يا مولاي قرب الأجل وانقطع العمل ، يا مولاي إنما كانت المعاملة طيبة بيني وبينه ، وقد علمت أنت وسيعلم غيرك وغيرك ولا حاجة لي في إفشاء السرّ وقد استودعتك الله وخر ساجداً ، فما زال يبكي ويتشهد إلى أن سكن حسه فحركته فإذا هو ميت رحمه الله عليه فتركته ومضيت إلى الفضيل وسفيان فأخذنا في أمره ما وجب ودفناه في المعلاة وانصرفت ، وفي قلبي لهيب النار فجئت إلى منزلي فلما كان الليل وقضيت وردي ونمت

فإذا بميمون قد أقبل في شملتين من الحرير وهو يتبسم وفي يده شيء فسلم عليّ وقال لي : يا مولاي حضرت بين يدي مولاي الكبير فشرحت له حالي ووزنك لثمني من غير منفعة انتفعت بها ولا خدمة ، فقال لي : يا ميمون إني أعلم السر وأخفى ، وأعلم ما في الضمائر القلوب وإنه لم يشترك إلا لوجهي وإجلالاً لكرامتي ، وقد أعتقته من النار بسببك وكرامتك عليّ وهذا ثمني فخذه . قال ابن المبارك : فبكيت وانتحبت واستيقظت من نومي والدراهم في يدي وأنا أبكي فوالله ما ذكرته قط إلا بكيت على فراقه :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل ... ففي حبه يحلو التهتك والذل
تذلل له تحظى برؤيا جماله ... إذا رضي المحبوب صح لك الوصل
أدار على العشاق خمرة قربه ... فطاب لهم فيها الصبابة والقتل
وقال لهم هذا جمالي تمتعوا ... وها خلع الإحسان والجود والفضل
سكارى حيارى واقفين ببابه ... وأجفانهم منها المدامع تنهلّ
فإن شئت أن تحظى برؤيا جماله ... تقدم وإلا فالغرام له أهل
فوالله ما في الكون يعشق غيره ... هو السّؤْل والمطلوب والقصد والكل

[قال مالك بن دينار رحمه الله] : أصابني في بعض أسفاري عطش شديد فملت إلى بعض الأودية طمعاً في الماء ، فسمعت صوتاً يهدر فقلت : هذه سباع مقبلة فوليت هارباً فناداني هاتف من بين الجبال : يا هذا ليس الأمر كما ظننت إنما هو وليّ لله سبحانه وتعالى قد عظمت زفرته واشتدت حسرته فارتفع صوته وعلا نحيبه فعدت إلى طريقي فإذا أنا بشاب قد أذابته العبادة حتى عاد كالخلال فسلمت عليه وأخبرته بعطشي . فقال : يا مالك ما وجدت في المملكة قطرة ماء ، ثم قام إلى صخرة فضربها برجله وقال لها : اسقنا ماء بقدرة من يحيي العظام وهي رميم فإذا الماء يخرج من الصخرة كما يخرج من العين فشربت حتى رويت ثم قلت : أوصني بشيء أنتفع به ، فقال : يا مالك كن لمولاك طائعاً في الخلوات حتى يسقيك الماء في الفلوات ثم ولى عني :

دمع أضر بمهجة المشتاق ... وجرت سوابق دمعه المهراق
صب إذا ما الليل أسبل ستره ... نادى بصوت في الدجى مشتاق
يا عالماً بسريرتي وبليتي ... وبما أجن من الأسى وألاقي
لو صرت نضواً في المحبة مغرماً ... ما حلت عن عهدي ولا ميثاقي
فامنن بعفوك لي فإني مذنب ... ما لي سواك لزلتي من راقي

[قال بعض السادة رحمه الله] : رأيت غلاماً في البادية وهو قائم يتعبد وليس معه أحد ، منقطعاً

عن العمارة والناس فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، فقلت له : يا فتى أنت في مكان منقطع بلا معين ولا رفيق . قال : بلى وعزة ربي معي المعين والرفيق ، قلت : وأين المعين أو الرفيق ؟ قال : هو فوقي بعزته ومعي بعلمه وحكمته وبين يدي بهدايته وعن يميني بنعمته وعن شمالي بعظمته . فلما سمعت هذا الكلام قلت : هل لك في المرافقة ؟ فقال : هيهات مرافقتك تشغلني عن خدمته وما أحب أن يكون هذا ولي ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، قلت له : أما تستوحش في هذا المكان ، فقال لي : يا هذا من كان المولى حبيبه وأنيسه كيف يستوحش ، قلت : من أين تأكل؟ قال : يا هذا غذاني بلطفه في ظلمة الأحشاء صغيراً أفلا يكفلني كبيراً ولي عنده رزق معلوم وله وقت محتوم فسألته الدعاء ، فقال لي : حجب الله طرفك عن معصيته وملأ قلبك بخشيته ولا جعلك ممن يشتغل بغيره عن خدمته ثم ذهب ليقوم فتعلقت به وقلت له : يا أخي متى ألقاك فتبسم وقال : أما بعد هذا اليوم فلا تحدث به نفسك في الدنيا ويوم القيامة يوم يجتمع فيه الناس كلهم فإن كنت ممن يلقاني فاطلبني في جملة الناظرين إلى الله عز وجلّ قلت له : ومن أين عرفت ذلك ؟ قال : به وعزته ، وذلك أني غضضت طرفي عن المحرمات ومنعت نفسي من تناول الشهوات وخلوت بخدمته في الليالي المظلمات ، فعوّضني النظر إلى وجهه الكريم ، ثم غاب عني فلم أره بعد ذلك :

أترى عبدكم يرى بالمصلى ... قبل يقضي أسى بكم يتملى ... سمعوني وأرسلوا لي جوابا
إن تكن صادقاً فأهلاً وسهلاً ... قلت أمشي على جفوني إليكم ... فعسى بالحبيب نجمع شملا
ثم أشري منه الوصال بروحي ... قيل لي وصله من الروح أغلى ... يا طريداً عن بابنا قبل الأر
ض لينا وعفر الخد ذلاً ... إن ذل المحب خير شفيع ... لحبيب قد صدّ عنه وولى
لا تظن الدموع تنفع إن لم ... تك تجري من القلوب وإلا ... ليس للدمع منة في هوانا
فابك مهما أردت طلا ووبلا ... قلت للروح ودعيني وروحي ... ثم للجسم خلني فتخلى
وإذا بالحبيب قد رفع الحجـ ... ـب تعالى جماله وتجلى ... ثم نادى أين المحب عبيدي
ادن مني وبالوصال تملى ... يا عبيدي أطلت صبرك عني ... أتسليت قلت حاشا وكلا
عطف السيد الكريم على العبـ ... ـد وما زال للتعطف أهلا ... ودعاه في مجلس الأنس جهرا
وعليه كأس التواصل يجلى ... ومنادي القبول منه ينادي ... هكذا هكذا يكون وإلا

فعلى أشرف النبيين صلوا ... فعليه رب الخلائق صلى

[قال إبراهيم الخواص رحمه الله عليه] : حججت سنة من السنين وكانت سنة كثرة الحرّ والسموم ، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز انقطعت عن الحاج وغفوت قليلاً فلم أشعر إلا وأنا وحدي في البرية فلاح لي شخص فأسرعت إليه فلحقته وإذا هو غلام لا نبات بعارضيه وجهه كالقمر المنير أو الشمس بالضاحية وعليه أثر الدلال والترفه ، فقلت له :

السلام عليك ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم ، فتعجبت منه أكثر العجب وقلت له : من أين تعرفني ولم ترني قبلها ؟ فقال : يا إبراهيم ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت ، فقلت له : ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحرّ والسموم ؟ فقال : يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا وافيت غيره وأنا منقطع إليه بالكلية مقرّ له بالعبودية ، فقلت له : من أين المأكول والمشروب ؟ قال : تكفل لي به المحبوب ثم أجابني ودموعه تنحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب ، وأنشأ يقول :

من ذا يخوّفني بالبرّ أقطعه ... إلى المحبّ وقد قدّمت إيمانا
الحب أقلقني والشوق أزعجني ... ولا يخاف محب الله إنسانا
فهل لصغران سني اليوم تحقرني ... دع عنك عذلك بي قد كان ما كانا

ثم قال: يا إبراهيم أنت منقطع عن الحاج ؟ فقلت له : نعم ، قال إبراهيم : فنظرت إلى الغلام قد لمح بطرفه إلى السماء وهمهم بكلمات فعند ذلك لحقتني سنة من النوم فلم أفق إلا وأنا في وسط الحاج ورفيقي يقول لي : يا إبراهيم احذر أن تقع عن الراحلة فما أعرف أن الغلام صعد إلى السماء أم نزل في الأرض ، فلما انتهيت إلى الموقف ودخلت الحرم الشريف وإذا أنا بالغلام متعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويقول :

تعلقت بالأستار والقبر زرته ... وأنت بما في القلب والسرّ أعلم ... أتيت إليه ماشياً غير راكب
لأني محبّ في هواك متيم ... هويتك طفلاً حيث لا أعرف الهوى ... فلا تعذلوني إنني متعلم
وإن كان قد حانت إليّ منيتي ... لعل بوصل منك أحظى وأغنم

ثم وقع ساجداً وأنا أنظر إليه فأطال السجود فأتيت إليه وحركته فإذا هو ميت رحمه الله تعالى فتأسفت عليه كل الأسف ومضيت إلى راحلتي وأخذت ثوباً واستعنت بمن يغسله فأتيت إليه فلم أجده فسألت عنه الحاج جميعاً فلم أجد أحداً يقول رآه حياً ولا ميتاً فعلمت أنه مستور عن الخلق وأنه لم يره أحد غيري فأتيت إلى مكاني وغفوت فرأيته في المنام وهو في موكب عظيم وهو في أوائهم وعليه أثر الدلال والترفه ، فقلت له : ألست صاحبي ؟ فقال : نعم ، فقلت له : ألست متّ ؟ قال : قد كان ذلك ،فقلت له : لقد طلبتك حتى أكفنك وأصلي عليك وأدفنك فلم أجدك ؟ فقال لي يا إبراهيم اعلم أن الذي من بلدي أخرجني ، ولمحبته شوّقني ، وعن أهلي غرّبني ، هو الذي تولاني وكفنني ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ، وقال : ما بغيتك ؟ فقلت : إلهي أنت أعلم ، فقال : أنت عبدي حقاً حقاً ، ولك عندي أن لا أحتجب عنك أبداً ، ثم قال لي : ما تريد ؟ فقلت : أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه ، قال: قد شفعتك فيه . قال إبراهيم : ثم صافحني فاستيقظت بعد المصافحة

وقضيت ما كان علي من الحج ونسكه ، ثم سرت مع جملة الحاج فما أجد أحداً إلا يقول لي : عجب الناس من طيب رائحة يدك . قال الناقل لهذا الحديث : ولم تزل رائحة الطيب تخرج من يد إبراهيم حتى قبض رحمة الله عليه :

قلوب بتقوى الله والذكر عامره ... وأوجههم بالقرب والبشر زاهره
يناجون مولاهم بفرط تضرع ... وأنوارهم من بهجة الحق باهره
يناديهم الرحمن أنتم أحبتي ... وأرواحهم شوقاً إلى القرب طائره
إذا اجتمعوا في خلوة الذكر في الدجى ... بمقعد صدق والزجاجات دائره
ترى أعين العشاق نحو حبيبهم ... إلى ذلك الوجه المقدس ناظره
فيا نفس هذا مشرب القوم فاشربي ... عسى أن تكوني عند ذلك حاضره
وتحظى برؤيا من بحسن جماله ... غدت ألسن المداح تتلو مفاخره
رسول أتى والشرك كالليل حالك ... فجلى بأنوار الرشاد دياجره
رؤوف رحيم شاهد متوكل ... سراج منير فاز من كان زائره
فلو شاهدت عيناك زوّار قبره ... وأعينهم كالسحب بالدمع ماطره
وتأتي وفود العاشقين صبابة ... إلى نحوه من كل فج مبادره
لتهدي نفوساً حجبت في ظلامها ... وكانت ضلالاً قبل ذلك حائره
وهبت لها من ذلك الحيّ نسمة ... وأنفاسها من طيب رياه عاطره
فيا أيها المختار من آل هاشم ... ومن كرم الله الكريم عناصره
أغثنا جميعاً في غد بشفاعة ... فأنت لكسر القلب ما زلت جابره
عليك سلام الله ماذرّ شارق ... ولاحت نجوم في دجى الليل نائره

المجلس الثاني والثلاثون

في مناقب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه

الحمد لله المعروف بالقدم قبل وجود الوجود ، الموصوف بالكرم والفضل والوجود ، المنزه في وحدانيته عن الأبناء والآباء والجدود ، المقدّس في ذاته عن الصاحبة والمصحوب والولد

والمولود ، العليم بأعداد الرمل والقطر وحبات السنبل والعنقود ، البصير بحركات الذرّ في البحر والبرّ تحت ظلام الديجور والليالي السود . الحكيم الذي فجر الأنهار من صمّ الجلمود ، وأخرج رطب الثمار من يابس العود ، لا تمثله الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تفنيه الأعصار ، ولا تدركه الأبصار وهو الواحد المعبود . المعطي الذي لا مانع لما أعطى ولا دافع لما قضى ، الكريم الذي جاد لعبده بجزيل رفده وكم رآه عن بابه معرضاً . الحليم الذي ستر العاصي بحلمه ورأفته وقد رآه لمعصيته متعرضاً . الغفار الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويعفو عما مضى ، القهار الذي قهر الجبابرة وكسر الأكسارة وضرب بسوط بعاده من سلّ سيف عناده وانتضى . فسبحان من حير الأفكار في مدارك سبحات جلاله العظيم ، وأذهل العقول عن الوصول إلى كنه ذاته القديم ، وأخرس الألسن عن عبارات إشارات سرّ أفعاله بعد الفصاحة والتكليم . وأدهش الخواطر عن الإحاطة به فلا يرام بالتوهيم ؛ فهو الكريم الماجد القديم ! الواحد المنزه من الولد والوالد ! المقدس عن المشارك والمساعد ، المتعالي عن المشابه والمماثل والمضادد والمعاند ، الشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي أسبل ستره الجميل على عبده العاصي الذليل ، وهو إليه ناظر ومشاهد ، فهو المعروف بالربوبية الموصوف بالإلّهية ، المنفرد بحقيقة الوحدانية ، تنزه عن الأوهام الخيالية وتعزز في بقائه عن الفناء والمثلية ، عالم بكل خفية وجلية ، حارت العقول في عظمته فما عرفت له أينية ، وكلت الأفكار عن إدارك صمديته فلا تعرف بالعلوم العقلية فسبحانه من إلّه تعالى على المماثل والمناسب ، وجلّ عن المشارك المصاحب ، يقبل التائب ويجيب الآيب ، وليس على بابه بوّاب ولا حاجب ، من أمل سواه فهو الشقي الخائب ومن أناخ بباب كرمه ظفر بنيل المآرب . ومن ذاق حلاوة أنسه رأى من لطفه عجائب الغرائب . ومن أعرض عن سواه رفعه ورقاه إلى أرفع المراتب . يزيل الضرر ويجبر من انكسر وينادي في السحر هل من مستغفر هل من تائب . ويستعرض حوائج السائلين ويجود على التائبين بخلع القبول والمواهب :

إلّه جل عن شبه ومثل ... وعن ندّ يعدّ وعن مصاحب
تفرد في علاه فلا شريك ... ينازعه ولا ضد محارب
تحجب حيث شاء فلا يدانى ... وجل عن المماثل والمناسب
تجلى للقلوب فليس يخفى ... وهل يخفى الحبيب على الحبائب

فسبحانه من إلّه شهدت له السموات وما فيها من العجائب . وأقرّت بربوبيته الأرضون في مشارقها والمغارب . واصطفى محمداً ﷺ نبيه المبعوث بالدين الواصب الموصوف بأحسن

الأوصاف وأجل المناقب . الذي شرّف الله به الوجود وكمل به السعود وبلغه أسنى المطالب والمآرب . واختار أصحابه النجباء وخلفاءه الكرماء الأخيار الأطايب وخص التابعين لهم بإحسان من أمته القائمين بشريعة الإسلام على توالي الزمان واختار منهم أربعة أقاموا قواعد الإيمان ودعوا العباد إلى عبادة الملك الديّان فملؤوا بعلومهم الآفاق والبلدان وسارت بها الركبان إلى كل مكان . فمنهم الإمام الشافعي المتصل نسبة بالشرف إلى عدنان . ومنهم الإمام الأصبحي مالك بن أنس الرفيع القدر والشأن . ومنهم الإمام أحمد بن حنبل الذي سلك بعلمه الطريق الأحمد في السرّ والإعلان . ومنهم الإمام الكوفي أبو حنيفة النعمان . فهؤلاء الأربعة السادات الأعيان الذين نفع الله بهم وبعلومهم الناس فزال عنهم البأس والجهل والغيّ والطغيان :

فالشافعي له علوم تشرق ... بين الورى وله ثناء يعبق ... ولمالك نشرت علوم مالها
حدّ كبحر زاخر يتدفق ... ولأحمد تعزى العلوم لأنه ... يروي الحديث وصدقه متحقق

وأبو حنيفة سابق فلأجل ذا ... آثاره وعلومه لا تسبق
فهم الأئمة خصهم رب العلا ... بالفضل منه فشأوهم لا يلحق

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى رضوان الله عليهم أجمعين ، ولد بالأنبار سنة ثمانين . ومات سنة مائة وخمسين وعاش سبعين سنة وكانت ولادته في عصر الصحابة وتفقه في زمن التابعين . قال أبو بكر بن ثابت المؤرّخ ﷺ : ويقال : إن أبا ثابت هو الذي أهدى الفالوذج لعليّ بن أبي طالب ﷺ يوم النيروز . وقيل : كان ذلك يوم المهرجان وكان ثابت أبو أبي حنيفة يقول : أنا في بركة دعوة صدرت من عليّ ﷺ في حقي . وقال السيد الشريف الحسيب النسيب أبو عبد الله محمد بن علي الحسيني أخبرني أبو العباس بن مسلمة قراءة عليه عن أبي البطي حدّثنا ابن خيرون أخبرنا الضمري . قال : كان أبو حنيفة حسن السمت والوجه والثوب والنعل والمواساة لكل من طاف به ، ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وكان من أحسن الناس منطقاً سقطت في حجره حية فقام الناس عنه فنفض الحية وهو في مكانه لم يتغير . وعن أبي نعيم أنه كان يقول : كان أبو حنيفة حسن الوجه والثياب طيب الريح حسن المجلس شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه . وكان عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى خائفاً منه مريداً وجه الله بعلمه . [فأما كونه عابداً] فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وقال عليّ ابن يزيد الصدائي رحمه الله : رأيت أبا حنيفة ختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة بالليل وختمة بالنهار . وقال أبو الجورية رحمه الله : لقد صحبت حماد بن أبي سليمان وعلقمة بن مرثد

ومحارب بن دثار وعون بن عبد الله وصحبت أبا حنيفة فما في القوم أحسن ليلاً من أبي حنيفة لقد صحبته ستة أشهر فما منها ليلة وضع جنبه فيها . وروي أنه كان يحيى نصف الليل ، وأشار إليه إنسان وهو يمشي وقال لغيره : هذا هو الذي يحيي الليل كله فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله . وقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أوصف بما ليس فيّ من العبادة :

للإمام النعمان فضل عظيم ... حيث للدين قد أقام منارا ... سنه ضاحك ويعلن حزنا
ألهب الخوف في الحشا منه نارا ... لم يزل يكتم التهجد حتى ... مات من خشية الإله اصطبارا
ليله قائم يصلي ويبكي ... وإذا جاء الصبح صام النهارا ... لو تراه إذا هدأت كل عين
باكياً يسفح الدموع الغزارا ... إن هذا هو الكريم على ... الله له صير الجنان قرارا

[وأما زهده] فقد روي عن بشر بن الوليد قال : كان أبو جعفر أمير المؤمنين أرسل إلى أبي حنيفة وأراد أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه أبو جعفر لتفعلن فحلف أبو حنيفة لا يفعل . فقال الربيع لأبي حنيفة : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر مني على كفارة يمينه فأمر به إلى السجن فمات في السجن ودفن في مقابر الخيزران . وفي موضع آخر : أن أبا جعفر المنصور دعا أبا حنيفة وسفيان الثوري وشريكاً فدخلوا عليه . فقال لسفيان : هذا عهدك على قضاء البصرة فالحق لها . وقال لشريك : هذا عهدك على قضاء الكوفة فامض إليها . وقال لأبي حنيفة : هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فامض . وقال لحاجبه : وجه معهم متوكلاً بهم فمن أبى منهم فاضربه مائة سوط . فأما شريك فإنه تقلد القضاء . وأما سفيان فإنه هرب إلى اليمن . وأما أبو حنيفة فإنه لم يقبل فضرب مائة سوط وحبس إلى أن مات ﷺ ورحمه رحمة واسعة .

وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك . فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فنفر منها ؟ وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضي أبو حنيفة فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه . فقال من حضر : لا يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة أي هذه عادته ، فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته فقال لابنه : إذا متّ ودفنوني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : هذه وديعتك التي أودعنها أبا حنيفة قال ابنه : ففعلت ذلك . فقال الحسن : رحمة الله على أبيك لقد كان شحيحاً على دينه . وأما علمه بطريق الآخرة وأمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجلّ فتدل على شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : بلغني عن

كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أن شديد الخوف من الله عزّ وجلّ . وقال شريك النخعي رحمه الله تعالى : كان أبو حنيفة ﷺ طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، وهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطن والاشتغال بمهمات الدين فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله :

قد غدا في الزمان أسمى وأعلى زاده الله منه نبلاً وفضلا صار في مجمع العلوم إلى حد
ذا التناهي فليس يلحق أصلا ذو بيان ما أشكل الخطب إلا حله فضله على الفور حلا

وغدا في السماح مثل سحاب لمعت نار برقه فاستهلا
حلّ أرض العراق فاعتاض منه أهلها العلم فارتووا منه نهلا

ويروى أن أبا حنيفة ﷺ كان يوماً جالساً في المسجد فدخل عليه طائفة من مقدمي الخوارج شاهرين سيوفهم ، فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتلناك ، قال : اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها يشتغل قلبي قالوا : كيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك فقال : سلوا إذن ، فقالوا : جنازتان على الباب : إحداهما رجل شرب الخمر فغص فمات سكران ، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة أهما كافران أم مؤمنان ؟ والقوم الذين جاؤوا يسألون مذهبهم التكفير بذنب واحد فإن قال : مؤمنين قتلوه . فقال : من أي فرقة كانا من اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : من النصارى ، قالوا : لا ، قال : من المجوس ؟ قالوا لا ، قال : من عبدة الأوثان ؟ قالوا : لا ، قال : ممن كانا ؟ قالوا : من المسلمين ، قال : قد أجبتم ، قالوا : وكيف ؟ قال : قد اعترفتم أنهما كانا من المسلمين ومن كان من المسلمين كيف تجعلونه من الكافرين ؟ قالوا : هما في الجنة أو في النار . قال : أقول فيهما ما قال إبراهيم خليل الرحمن ﷺ في حق من هو شر منهما ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : [إبراهيم : ٣٦] وأقول ما قال عيسى روح الله عليه الصلاة والسلام فيمن هو شرّ منهما : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ : [المائدة : ١١٨] فتابوا واعتذروا إليه . وروي أن امرأة دخلت مسجده وهو جالس بين أصحابه فأخرجت تفاحة أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر فوضعتها بين يديه ولم تتكلم فأخذها أبو حنيفة وشقها نصفين فقامت المرأة وخرجت ولم يعرف أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك ، فقال لهم : إنها ترى الدم تارة أحمر مثل أحد جانبي التفاحة وتارة أصفر مثل الجانب الآخر أيهما يكون حيضاً أو طهراً فشققت التفاحة وأريتها باطنها وأردت بذلك أنها لاتطهر حتى ترى البياض مثل باطنها فقامت . وقال أبو حنيفة : دخلت البصرة فظننت أن لا أسأل عن شيء إلا

أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً فصحبته عشرين سنة قال : وما صليت صلاة إلا واستغفرت لحماد مع والديّ ولكل من قرأت عليه وحدثنا صلح بن محمد عن يوسف بن رزين عن أبي حنيفة ﷺ قال : رأيت في المنام كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فأخرجت عظاماً فاحتضنتها قال : فهالتني هذه الرؤيا فدخلت إلى ابن سيرين فقصصتها عليه فقال : إن صدقت رؤياك لتحيينَّ سنة محمد ﷺ . وحدثنا يوسف بن الصباغ قال : قال لي رجل رأيت كأن أبا حنيفة نبش قبر النبي ﷺ . فسألت عن ذلك ابن سيرين ولم أخبره من الرجل قال : هذا رجل يحيي سنة رسول الله ﷺ . وكان أبو حنيفة ﷺ يقول : ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن أصحابه اخترنا منه ولم نخرج عن قولهم وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . وأما غير ذلك فلا نسمع :

لقد أيد الله الأنام بعلمه ... وقد ردّ حزب الجهل بالعلم معروف
وقد ملأ الآفاق فضلاً بعلمه ... وكم جاءه في الكشف للضر ملهوف
وكم من منامات رآها له الورى ... وكم نفعتهم من نهاة التصانيف
وكم من كرامات حكى القطر عدها ... فلا الفضل محجوب ولا الحق مصروف
فهذا هو النعمان حقاً وإنه ... له عند رب العرش في القدر تشريف

وأما تأدّبه عند مجالسة العلماء فحدّثنا أبو هاشم أيوب بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن رشيد صاحب عبد الرحمن بن أبي القاسم عن يوسف بن عمرو عن عبد العزيز الدراوردي قال : رأيت أبا حنيفة ومالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة وهما يتذكران ويتدارسان حتى إذا وقف أحدهما عن القول الذي قال به أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تعيير ولا تخطئة حتى صليا الغداة في مجلسهما ذلك رضي الله عنهما . وأما إنصافه واعترافه فإنه ﷺ كان يقول : قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب . وأما قيامه لله تعالى حق القيام فإنه كان إذا رأى منكراً ذهب ذلك اللين فظاظة واحمرّت عيناه وانقلبتا في أمّ رأسه ، وانتفخت أوداجه ، وما رأى منكراً قط إلا أزاله ؛ ولقد خرج يوماً فرأى بعض الملاهي مع رجل فهاوشه فأوجعه الرجل ضرباً ولم يعرفه وهو مع ذلك يحرص على كسر ذلك حتى كسره ورجع إلى بيته فمكث شهرين منقطعاً في بيته من شدة الضرب . وقال الخطيب : قيل لسفيان الثوري : ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ، ما سمعته يغتاب عدوّاً له قط . قال : هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها . وقال علي بن عاصم رحمه الله : لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض لرجح بهم . وأما تأدّبه مع السلف فيروى أن سئل ﷺ عن علقمة والأسود أيهما كان أفضل ؟ فقال : والله ما بلغ قدري أن أذكرهما إلا بالدعاء

والاستغفار إجلالاً لهما ولا أفضل بينهما . وأما كرمه ﷺ ، فقال قيس بن الربيع : كان أبو حنيفة يجمع ما يكتسبه من بضائعه فيشتري به الكسوة للمشايخ المحدّثين وما يحتاجون إليه ويقول : احمدوا الله تعالى فهو الذي أعطاكم فوالله ما أعطيتكم من مالي شيئاً . وكان ﷺ إذا جلس إليه الرجل يسأل عنه فإن كان به فاقه أعطاه فجلس إليه رجل عليه ثياب رثة ، فلما تفرَّق الناس عنه أمره بالقعود حتى خلا به فقال : ارفع هذا المصلى وخذ من تحته ألف درهم أصلح بها حالك ، فقال الرجل : أنا موسر وأنا في نعمة ، فقال له : أما بلغك الحديث : « إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتمّ بك صديقك :

لأبي حنيفة في العلوم منار ... ملئت بها الآفاق والأقطار
شيخ البرية في العلوم ومن له ... تروى المناقب عنه والأخبار
متعبد لله طول حياته ... وعليه منه سكينة ووقار
قد كان يحيي ليله متهجداً ... وله بكل وظيفة أذكار
وعطاؤه قد كان سحاً في الورى ... وله بذاك على الأنام فخار

وكان ﷺ لا يكلمه أحد في حاجة إلا قضاها . وأما ورعه عما دخله الشبه ؛ فعن حفص بن عبد الرحمن وكان شريك أبي حنيفة : أن أبا حنيفة كان يتجر عليه ويبعث إليه بمتاع ويقول له في ثوب كذا عيب فبين إن بعته فباع حفص المتاع ولم يبين ونسي ، فلما علم أبو حنيفة ذلك تصدّق بثمن الثياب كلها ، ومن ورعه ﷺ أن شاة سرقت في عهده فلم يأكل لحم شاة مدة تعيش الشاة فيها . وروي أن الخليفة بعث إلى أبي حنيفة وابن أبي ذئب بمال ، فقال ابن أبي ذئب : إن لا أرضى له بهذا المال فكيف أرضاه لنفسي ، وقال أبو حنيفة : لو ضربت على أن أمسّ منه درهماً ما مسسته ، وروي أن الخليفة دعاه فقال : يا أبا حنيفة : كم يحلّ للرجل الحرّ من النساء الحرائر ؟ فقال : أربع ، فقال الخليفة : اسمعي يا حرة ، فقال أبو حنيفة : على البديهة يا أمير المؤمنين لا يحل لك إلا واحدة فغضب الخليفة وقال : الآن قلت أربع ، فقال : يا أمير المؤمنين قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ : [النساء : ٣] فلما سمعتك تقول اسمعي يا حرة عرفت أنك لا تعدل ، لهذا قلت لا يحل لك إلا واحدة ، فلما خرج أبو حنيفة بعثت زوجة الخليفة إليه ألف دينار وأنفذت تشكره وتثني عليه ، فلم يقبلها أبو حنيفة وردها وقال للرسول : قل لها أنا ما تكلمت لأجلك وما تكلمت إلا لأجل الله فأجري على الله . وكان ﷺ كثيراً الخوف والصدقة ، قال الخطيب : كان أبو حنيفة إذا أنفق على عياله نفقة

تصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً كسا بقدر ثمنه العلماء ، وكان إذا وضع بين يديه الطعام ترك منه على الخبز بقدر ما يأكل ثم يطعمه لإنسان فقير أو لمن في بيته يحتاج إليه ، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل ، وكان دائماً يتمثل بهذين البيتين :

عطاء ذي العرش خير من عطائكمو ... وفضله واسع يرجى وينتظر
تكدرون العطا منكم بمنتكم ... والله يعطي فلا منّ ولا كدر

وقال محمد بن الحسين الليثي : قدمت الكوفة فسألت عن أعبد أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة ثم قدمتها وأنا شيخ فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة . وقال مسعر بن كدام وكان مشتهراً بالزهد والاجتهاد : أتيت أبا حنيفة في مجلسه فرأيته يصلي الغداة ثم يجلس للناس للعلم إلى أن يصلي الظهر ثم يجلس إلى العصر فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب فإذا صلى المغرب جلس إلى أن يصلي العشاء الآخرة فقلت في نفسي : هذا الرجل في هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة لأتعاهدنه الليلة . قال : فتعاهدته فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر ودخل منزله ولبس ثيابه ، وخرج إلى المسجد ففعل كفعله اليوم الأوّل ، فلما جاء الليل تعاهدته ففعل كفعله الليلة الماضية . قال : فقلت لألزمنه إلى أن أموت أو يموت . قال ابن أبي معاذ : فبلغني أن مسعراً مات في مسجد أبي حنيفة في سجوده . وعن محمد بن الحسن قال : حدثني القاسم بن معن أن أبا حنيفة ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ : [القمر : ٤٦] فلم يزل يرددها ويبكي ويتضرع إلى أن طلع الفجر . وقال حفص بن عبد الرحمن : كان أبو حنيفة يحيي الليل بقراءة القرآن في ركعة ثلاثين سنة . وقال أسد بن عمرو : صلى أبو حنيفة ﷺ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة . وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه . وقيل : إنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه ستة آلاف مرة . وقال ابن أبي زائدة : صليت مع أبي حنيفة العشاء الآخرة ، وخرج الناس وأنا في المسجد أريد أن أسأله عن مسألة وهو لا يعلم أني في المسجد فقرأ حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ : [الطور : ٢٧] فلم يزل يرددها حتى طلع الفجر . ويروى أنه من شدّة خوفه سمع قارئاً يقرأ ليلة في المسجد : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] فلم يزل قابضاً على لحيته إلى الفجر وهو يقول : نجزى بمثقال ذرة ، فرحمة الله عليه ورضوانه :

إن ترد في أبي حنيفة وصفا ... فالرواة الثقات عنه تشير ... كان شمساً يضيء بالعلم حقا
وهو في الناس بالعلوم الأمير ... كان شيخ الإسلام قدوة خلق الله ... حقاً لما اقتضاه القدير
لم يزل وجهه جميلاً بهيا ... خاشعاً لا يشوبه تكدير ... معرضاً عن حطام دنيا تلهى
كل عقل بحبها مأسور ... قد تساوى لديه تنزيه نفس ... عن حطام قليلها والكثير

وأما وفاته فحدثنا أحمد بن كامل وعبد الباقي بن قانع قالا : توفي أبو حنيفة ﷺ ببغداد في رجب أو شعبان سنة خمسين ومائة وبلغ سبعين سنة . قيل : إنه سقي السم فمات رحمه الله ، وصلى عليه قاضي القضاء الحسن بن عمارة في جمع عظيم . وأما رؤيته بعد الموت فحدثنا جعفر بن الحسن قال : رأيت أبا حنيفة في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . وعن علي ابن الحسن قال : حدّثنا علي بن مسلمة قال : سمعت عبد الحميد بن عبد الرحمن الجماني يقول : رأيت في النام كأن نجماً سقط من السماء فقيل أبو حنيفة ، ثم سقط نجم آخر فقيل : مسعر ، ثم سقط آخر فقيل : سفيان . فمات أبو حنيفة قبل مسعر ثم مسعر قبل سفيان . وحدثنا خلف بن سالم قال : حدّثنا صدقة ـ وكان صدقة مجاب الدعوة ـ : أنه لما دفن أبو حنيفة رحمة الله عليه في مقابر الخيزران سمعت صوتاً ليال يقول :

ذهب الفقه فلا فقه لكم ... فاتقوا الله وكونوا خلفا
مات نعمان فمن هذا الذي ... بعد يحيي ليله إن سجفا

وقال بعضهم في وفاته :

ألا كم لنعمان علوم سوابق ... ويعزى له فضل وتنمى حقائق
وزهد ولطف زانه وتفرد ... معارف شاعت في العلا وطرائق
فللّه يوم حان فيه حمامه ... فكادت له تهوي الجبال الشواهق
وغص به كل الأنام فذا شج ... كئيب وذا باك وآخر شاهق
ويعلو وقار نعشه وسكينة ... وكل فؤاد قد غدا وهو خافق
وقاموا صفوفاً للصلاة كأنهم ... سطور وهاتيك البقاع مهارق
تحفهمو فيها الملائك خشعاً ... ومن حوله حور حسان عرائق
وقد حسد المسك التراب لطيبه ... بقبر له فالطيب من ذاك عابق
وفتحت الجنات يوم قدومه ... يقبله رضوانه ويعانق
وكم من منامات رآها أولو النهى ... له فهي بالإسناد عنه توافق
وكم من علوم واجتهاد بفقهه ... يصون حماها حافز منه صادق
وكم حل إشكالاً وكم من أدلة ... تشدّ إلى معناه فيها الأيانق
وحدث عن خير الورى عند قبره ... أحاديث صدق وهو بالنقل واثق
وأحيا بعلم الفقه سنة أحمد ... نبي له قلب المتيّم شائق
نبي الهدى جالي الصدى قامع العدا ... مزيل الردى يوماً تحق الحقائق
شفيع الورى خير الأنام محمد ... ومن فضله في الخلق والذكر سابق

أحنّ إليه كل وقت وأنثني ... وقد عوقتني عن لقاه العوائق
لئن أوصلتني أرض نجد مطيتي ... وزرت حماه الرحب والدمع دافق
كحلت عيوني من تراب ضريحه ... ومن لي به كحلاً لعيني يوافق
عليه صلاة الله ثم سلامه ... مدى الدهر والأزمان ما ذرّ شارق

المجلس الثالث والثلاثون

في ذكر كرامات الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي ظهر بالبرهان وتجلى ، وتصرف في الأكوان فعزل وولى ، ووفق من شاء من عباده فجاهد في الله حق جهاده وما ولى ، أقامه في الليل لخدمته فجاهد في طاعته ، وتلذذ بمنادمته والسعيد من بات بمشاهدة مولاه يتملى ، وسقاه من شراب قربه بكؤوس حبه فنادى بلسان ذوقه وقلبه على جمرات شوقه يتقلى :

هذه الكاسات في الأسحار تجلى ... ما ترى الساقي علينا قد تجلى ... زالت الوحشة بالأنس وقد
قيل يا من يطلب الوصل تملى ... دولة الهجر توالت وانقضت ... والذي قد كان معزولاً تولى
أيها الأحباب هذا وقتكم ... إن عزمتم فابذلوا الأرواح بذلا ... خلوة الليل خلت من عاذل
والذي تهواه لا يسمع عذلا ... واحد منفرد في ذاته ... عنه آيات صفات الحسن تتلى

فسبحان من نظر بحسن اصطفائه إلى أوليائه ومنحهم من عطائه نعماً وفضلاً ، أعطاهم ومناهم اختبرهم وابتلاهم فشكروا على ما أعطى وصبروا على ما أبلى ، سبقت لهم العناية بالسعادة في سابق الإرادة فكانوا من الذين أحسنوا الحسنى وزيادة إذ صيرهم لها أهلاً ، خف منهم معروفاً بالمعروف فخرق في محبته الصفوف ، وجال في مجال الحتوف ، وما زاغ من محبته ولا ولى ، وفقه لمحبته ومنحه من طيب حضرته قرباً ووصلاً ، وسقاه بكأس الوصال حين رقاه إلى رتبة الاتصال ففاز بقربه وتملى :

مذ شهدت الحبيب جهراً تحلى ... همت شوقاً ونلت قرباً ووصلا
فلهذا عرفت فيه جهاراً ... بشهود الهوى وكأسي تملى

وجاد بالمزيد على أبي يزيد ، فلزم التجريد وشطح على كل مريد بالمورد الأحلى ونادى بلسان

حاله مترجماً عن وجده وبلبابه متعجباً بأحواله مدلاً :

ويح من لم يكن لوصلك أهلاً ذاك عن قصده تباعد جهلا
لو يذوق الغرام في الحب أضحى مستهاماً بناره يتقلى

وشعشع شموس العناية للشبلي ، فبات لأنوار الهداية يستجلى ، ولأسرار المحبة يستملى ، إذ شرب بين الناس بالكأس الأملى ، وخاطبه في خلوة أنسه ، وقال له بنفسه مرحباً وأهلاً وسهلاً :

كأس شوقي من دنّ ذوقي تملى وعروس الرضا لعيني تجلى
لو تراني وقد براني نحول هو عندي أهنى لقلبي وأحلى

وتفضل على الفضيل ، فشمر في خدمته الذيل ، وسار في نيل التحقيق بعد قطع الطريق مستقلاً وأصلى بالمصالحة أسرار قلبه وناداه وقد جمع له بقربه شملاً :

قد عفونا عما مضى منك فضلاً مذ رأيناك للتواصل أهلا
ثم قلنا لما أتيت منيباً مرحبا مرحبا وأهلاً وسهلا

وأدار صرف المزاج على الحلاج فسكر وهاج ، وخرج عن المنهاج ، وبات بنار شوقه يتقلى ، ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده لما رأى ساقي شهوده في وجوده قد تجلى :

ساقي الراح لا تزدني مهلا ما ترى القوم من شرابك قتلى
ياحبيب القلوب أنت لقلبي كعبة الحسن للخلائق تجلى
جئت أسعى على جفوني إليها قيل لي لن تنال بالسعي وصلا
قلت إن جئت زائراً تقبلوني قيل إن كنت للتواصل أهلا
قلت قد متّ في هواكم غراماً قيل هكذا يكون وإلا
أيها الخاطب الذي جاء يبغي من حمانا قرباً ويطلب وصلا
غضّ عن غير حسننا كل طرف وتهنى بحسننا وتملى
وإذا جئت فامدد الكف فقراً في الديباجي وعفر الخدّ ذلا
واعترف بالذنوب وابك الخطايا وزماناً مضى وعمراً تولى
ثم لذ بالنبي خير البرايا والذي في الإسرا دنا فتدلى
ثم صلّ عليه في كل وقت فعليه رب الخلائق صلى

[عن سهل بن عبد الله ﷺ] قال : مرض رجل من أولياء الله تعالى مرضاً شديداً فكان الناس إذا رأوه قالوا به جنون فأكثروا عليه ، فلما عظم كلام الناس في أمره قالوا له : نعالجك ؟ . فقال

لهم : يا قوم اعلموا أن لي طبيباً إذا سألته داواني لكنني لا أسأله أن يداويني فقيل له : ولم ذلك وأنت محتاج إلى الدواء ؟ فقال : أخشى إن برئت من هذه العلة طغيت . فقيل له : إن عندنا مجنوناً فاسأل طبيبك هذا أن يداويه ، قال نعم ائتوني به فأتوه برجل في عنقه غلّ عظيم ويداه مشدودتان إلى عنقه في قيد ثقيل قد استمكنت منه العلة ، فقال لهم : خلوا بيني وبينه فنهض جهال القوم إلى يديه فحلوهما وأدخلوه معه في البيت الذي كان فيه وأغلقوا عليهما الباب وهم يظنون أنه سيفضي إليه بمكروه ، فلما كان بعد ساعة صاحوا به فأجابهم وخرج إليهم وسلم ليهم وكلمهم بكلام عاقل وهو يبكي بكاءً شديداً . فقال له : أخبرنا بقصتك وما كان منك ومنه ، فقال : دخلت على هذا الرجل وأنا على ما قد علمتم لا أعقل شيئاً كما رأيتموني فقرّبني منه وأدناني وجعل يده على صدري والأخرى على رأسي فأحسست بالعافية وزال ما بي فقالوا له : ادخل معنا إليه لنسأله أن يدعو الله عزّ وجلّ لنا فدخل مع القوم إليه فلم يجدوه في البيت وستره الله عزّ وجلّ عن أعينهم . قال سهم : وهذا رجل من بيت المقدس يقال له إدريس بن أبي خولة ﷺ :

أهل المحبة ما نالوا الذي وجدوا ... حتى لربهم في الخلوة انفردوا
تراهم الدهر لا يمضون من بلد ... إلا ويبكي عليهم ذلك البلد
لا يعطفون على أهل ولا ولد ... ولا ينامون إن كان الورى رقدوا
فالذكر مطعمهم والشكر مشربهم ... والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا
لا يبرحون على أبواب سيدهم ... ولا يريدون إلا من له عبدوا
فالشوق يضرم ناراً في قلوبهم ... ونارهم في دجى الظلماء تتقد
مساجد الله مأواهم ومسكنهم ... وعيشهم طيب في قربه رغد

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : حججت سنة من السنين وجاورت بمكة شرّفها الله تعالى فجئت يوماً إلى بئر زمزم لأرتوي منها فلم أجد بها حبلاً ولا ركوة ولا سقاء ، فبينا أنا كذلك إذ دخل عبد أسود ومعه ركوة وحبل فدلاهما في البئر فلم يصلا فرفعهما وقال : وعزتك لئن لم تسقني لأغضبن فإذا بالماء قد طفح على جانب البئر فتوضأ وشرب وملأ ركوته ثم عاد الماء إلى قعر البئر ، قال الجنيد : فلما خرج تبعته وقلت حبيبي على من كنت تغضب ؟ فقال : يا جنيد ما هو كما خطر لك كنت أغضب على نفسي لا أسقيها الماء إلى يوم القيامة ، فلما علم سيدي صدق الدعوى أنبع لي الماء ثم غاب عني فلم أراه :

قوم أقاموا ودامـوا ... على العهود وراقبوا ... حبيبهم واستقاموا ... في السر والإجهار
طوبى لهم إذ وفوا ... إليه من دون الورى ... وبادروا بالطاعة ... في خدمة الجبار

لبـــوه لمـــا دعـــاهم وقـــدموا أرواحهـــم وأقبلـــوا لحمـــاه مـــن ســـائر الأقطـــار
لهـــم حقـــائق دقـــائق على الخلائـق تـنعجم محلـها مـــن بـــوارق خـــوارق الأفكـــار
هبـت علـيهم نسـيمة فاستنشقوا من نشرها شـذا الحبيـب ومنـها تنســـموا الأخبـــار
وحين وافـت وطافـت تفـــردوا وتجـــردوا عـــن الوجـــود وولـــوا عـــن ســـائر الأغيـــار
قلـــوبهم معمـــورة بحـبّ مـولاهم فـلا يضـرّهم في الظـاهر ملابـــس الإنكـــار
بـاعوا النعـيم الفـاني وحققـوا واسـتيقنوا بـــأن هـــذي الـــدنيا ليســـت بـــدار قـــرار
أبـــاحهم مـــولاهم يـوم القيامـة والجـزا جنـات عـدن تجـري مـــن تحتـــها الأنهـــار
فعنـد مـا يـدخلوها تقبـل تنـادي الملائكـة بشـــراكم إذ صـــبرتم فـــنعم عقـــبى الـــدار

[قيل] لمعروف الكرخي رحمة الله عليه : يا معروف بماذا أنت معروف ، وبأيّ وصف في المحبة موصوف ؟ فقال : ياقوم ويحكم هل يجهل المعروف أو ينكر المألوف ، وهل يخفى القمر إلا على البصر المكفوف ؟ أما تنظرون إلى قلبي المشغوف ولبي الملهوف وعقلي المخطوف فكم خرقت في المحبة من صفوف ، وكم جرعت من كؤوس صروفها من حتوف ، وكم قرأت في رموز مشكلها من حروف ، حتى صرت بين أهل المحبة معروف ، ولولا أن يكون معروف لكان عن طريق السعادة مصروف فإن المستور بأثواب غروره مكشوف ، والمتبهرج بدعواه ترد عليه الزيزف :

جسدي على حكم الضنى موقوف أبـداً وطـرفي بالبكـاء مطـروف
والقلب حول حماكمو ورضاكمو يسعى على قدم الصفا ويطوف
فبحسـنكم قلـبي يهـيم صـبابة وبحـبكم أبـداً أنـا موصـوف
وبوصلكم قد غدت من هجرانكم فأنـا الحـزين وقلـبي الملـهوف
وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي والفضـل أن لا ينكـر المعـروف
مـا لي سـوى أبـوابكم يـا سـادتي والقلب مـن هجـرانكم مرجـوف
حاشـاكمو أن تطـردوا عبـداً لكـم عن بـابكم قـد جـاء وهـو مخـوف
يبغي الأمان ومنكمو يرجو الرضـا والسـتر فهـو لـديكمو مكشـوف

[قيل] للفضيل بن عياض رحمة الله عليه : يا فضل أخبرنا كيف جذبتك يد التوفيق من قطع الطريق ، وكيف نقلت من فريق الشقاوة إلى أسعد فريق ؟ فقال : يا قوم كنت ضالاً عن الطريق بعيداً عن التوفيق ، فأنقذني مولاي من بحر الآثام ، وغمرني بالإحسان والإنعام ، فقالوا : كيف كان ذلك ، وكيف قربت عليك المسالك ؟ فقال : بينا أنا يوماً قد خرجت لأقطع الطريق على المارة وتقودني إلى الشرّ نفسي الأمارة غرّني الزمان واستحوذ عليّ الشيطان ، فذهب لأستلب الرقاب وأنتهب الركاب ، وأنا في ظلمة الحجاب آتيه ولا أعرف لطريق

الصواب باب ، إذا طلع عليّ من مكامن التوفيق كمين : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ : [الحديد :١٦] فألقيت له سمعي وأجريت بالبكاء دمعي وطار قلبي وأثر ذلك في رجوعي إلى بي . فقلت : بلى والله قد آن وحان رجوعي إلى الرحمن وخوفي من العصيان ، ولكن لا بد للخائف من أمان ، فجاءت بشائر القرآن بترجمان : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ : [الرحمن : ٤٦] فرجعت من قطع الطريق الجادة إلى قطع السجادة وخرجت عن طريق الوسادة ودخلت في طريق أهل السعادة ، فصرت تحت قهر قدرته أسيراً ووقفت على باب رحمته فقيراً ونكست رأس ذلتي على باب عزته كسيراً . وقلت : سيدي رجعت إليك رجوع العبد الآبق مستشفعاً بفضلك السابق فغدوت صائداً ورجعت مصاداً ، وذهبت قائداً ورجعت إلى بابك منقاداً ، ثم أنشد يقول :

عبيدك في معاصيه تمادى ... وبارز إذ طغى وبغى عنادا ... وها أنا واقف بالباب فردا
كما تأتي العبيد غداً فرادى ... فكم سوّدت من صحف ولكن ... ستور الحلم غطين السوادا
فوا خجلي ومالي ثم وجه ... أواجههم ولا أعددت زادا ... ولا مال يقربني إليهم
ولا جاء يبلغني المراد ... تراك معذبي يا نور عيني ... وقلبي فيك قد أصفى الودادا
فإن يرضيك إبعادي وطردي ... على رأسي ولو أضنى الفؤادا ... فيا الله ما أهنا محبا
إلى أحبابه ألقى القيادا ... وما أشقى معنى قد تعنى ... وسدّ الباب فانقلب ارتدادا

فيا مولاي جد بالعفو وارحم ... كثيباً قد أسا جهراً ونادى
أقلني عثرتي يا رب واغفر ... لعبد في المعاصي قد تمادى

[كان] في بني إسرائيل رجل عابد في كهف جبل لا يراه الناس ولا يراهم وعنده عين ماء يتوضأ منها ويشرب ويقتات من نبات الأرض وهو صائم النهار قائم الليل لا يفتر عن العبادة وعليه آثار السعادة فسمع به موسى عليه السلام فقصده في النهار فوجده مشغولاً بالصلاة والأذكار وقصده في الليل فوجد مستغرقاً في مناجاة العزيز الغفار ، فسلم عليه موسى عليه السلام : وقال له : يا هذا ارفق بنفسك ، فقال يا نبي الله أخاف أن أؤخذ على غفلة فأقضي نحبي وأكون مقصراً في خدمة ربي ، فقال له موسى عليه السلام : هل لك من حاجة ؟ قال : سل مولاك أن يعطيني رضاه ولا يشغلني بسواه حتى ألقاه ، فصعد موسى عليه السلام إلى المناجاة واستغرق في لذة كلام مولاه ، فنسي قول العابد ، فقال له الحق سبحانه وتعالى : ماذا قال لك عبدي العابد ؟ فقال : إلهي أنت أعلم سألني أن تعطيه رضاك ولا تشغله بسواك حتى يلقاك . فقال : يا موسى اذهب إليه وقل له بتعبد ما شاء في الليل والنهار فهو من أهل النار لما سبق له عندي من الذنوب والأوزار وأعلم منه ما لا يعلمه غيري من الفضيحة والعار ، فأتاه موسى عليه السلام فأخبره بقول ربه وما سبق من

عظيم ذنبه ، فقال : مرحبًا بقضاء ربي وحكمه وكل شيء بعينه وعلمه لا مردّ لأمره ولا معقب لحكمه ثم بكى بكاء شديداً ، وقال : يا موسى وعزته وجلاله ما برحت عن بابه ولو طردني ، ولا حلت عن جنابه ولو أحرقني ومزقني ثم أنشد :

لـو قطعـني الغـرام إربـاً إربـا ... مـا ازددت علـى الغـرام إلا حبـا
لا زلـت بـه أسـير وجـد وضـنى ... حـتى أقضـي علـى هـواه نحبـا

فلما صعد موسى عليه السلام إلى المناجاة وقال : إلهي أنت أعلم بما قال عبدك العابد ، قال : يا موسى بشره بأنه من أهل الجنة فقد أدركته الرحمة والمنة وقل له تلقيت قضائي بالصبر والرضا ورضيت مني بأصعب حكم وقضا ، فلو ملأت ذنوبك السموات والأرض والفضا ، وجميع الأقطار لغفرتها لك وأنت الكريم الغفار ، فلما بلغه موسى ذلك خرّ ساجداً وحمد ربه ، وما زال في سجوده حتى قضى نحبه :

نوح الحمام على الغضـون شـجاني ... ورأى العـذول صـبابتي فبكـاني
إن الحمام ينوح من خـوف النـوى ... وأنـا أنـوح مخافـة الـرحمن
فلئن بكيـت فـلا ألام علـى البكـا ... ولطالمـا اسـتغرقت في العصـيان
يا رب عبدك مـن عـذابك مشـفق ... بـك مسـتجير مـن لظـى الـنيران
فـارحم تضـرعه إليـك وحزنـه ... وامـنن عليـه اليـوم بـالغفران

فيا أيها العبد المريب إلى متى يدعوك مولاك وأنت معرض لا تجيب وكم يتقرّب إليك بإحسانه وأنت تبارزه بعصيانه وعليك منه رقيب ؟ بادر بالتوبة إلى بابه ولذ بجنابه فهو منك قريب ، واسأله الهداية والتوفيق واقصده في إفراج الهمّ والضيق فقاصده لا يخيب ، وعامله بما يرضيه واحذر من معاصيه فإنه حاضر لا يغيب ، وادعه حين تناجيه فإنه لداعيه مجيب ، وتب في هذه الساعة إليه ، وتضرع بين يديه بالبكاء والنحيب ، فعسى يجتبيك بعنايته ، ويهديك بهدايته ، فإن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب .

[كان وكان]

تعصـي الإلـه وتغلـق ... بابـك لكـيلا تفتضـح ... فكـل مـا قـد علمتـه ... عليـك فيـه رقيـب
تـزعم بأنـك عاقـل ... وأنت مـن أهـل الوفـا ... وتتبـع شـهواتك ... مـا ذاك فعـل لبيـب
انهض وداوي سقامك ... فـذا أوان طبـه ... قبـل أن تجيـك المنيـة ... مـا ينفـع التطبيـب
وقـم وهـيىء زادك ... فقد دنـا وقـت السفر ... وراع غصـن شـبابك ... مـا دام غصـن رطيـب

فيا أخي إلى متى تضيع عمرك وما نلت منه نصيب ، إلى كم يستحضرك إلى حضرة جنابه وأنت في المغيب ، إلى متى أنت سقيم بعلة زلتك ولا تبدي شرح قضيتك إلى الطبيب ؟ .

[كان وكان] :

ارفـــع إلى محبوبـــك قصة ذنوبك في الدجى فهو الطبيب المداوي ومـــن دعـــاه يجيـــب
حيـث اتجهـت رأيتـه حاضر معك في خلوتك وحيـث كنـت وجدتـه معـك فلـيس يغيـب
فقـم وداوي سـقامك واهجر منامك والكـرى واخلص قيامك عسـى أن تنـال منـه نصـيب

فيا أيها الغريق في بحار الخطايا والذنوب ، المشتهر بالقبائح والعيوب ، المعرض عن خدمة علام الغيوب ، إن كنت مستوحشاً بالذنوب ، فباب الكريم مفتوح لمن يتوب .

[كان وكان] :

فـانهض وبـادر بتوبـة ثم اعتـذر عمـا مضـى إلى متى أنـت معـرض عن الرضـى محجـوب
وقـم وقـول ارحمـوني وســـامحوني ســـادتي فكـم علمـت قبـايح وكـم ركبـت ذنـوب
وهـا أنـا جئـت تائـب مـن زلـتي يـا سـيدي فارحم خضـوعي وذلي ودمعـــي المســـكوب

فيا أيها المريد المنقطع عن حبل حبه المديد لا تستصعب الطريق ، ولا تستبعد التوفيق ، فكم من ضعيف محمول ، وكم من منقطع موصول ، اركب جواد همتك وضع قدم أقدامك في ركاب عزيمتك ، فإن لم تملك زاداً من التقوى فاجعل لك زاداً من الشكوى ، واقدح به في حراق قلبك المحترق وأرسل عليه سحاب دمعك المندفق ، فإذا صعد دخان زفراتك وعلت أنفاس حسراتك ، قف على الباب منتظراً ماذا يكون من الجواب ؟ فإن سمعت في العتاب من ذا الغريب الواقف بالباب وقوف المريب ؟ فقل :

العبـد واقـف بالبـاب وقـوف سـائل مفتقـر منكس الـرأس يبكـي بدمعـــه المســـكوب
قلب الفقير رأس مالـه ورأس مالي قـد خـرب واحســرتي واعنـائي بقلـــبي المســـلوب

فإن قيل لك فما الذي أبطأ بك عن مطلوبك وما الذي قطعك عن محبوبك ؟ فقل :

مـا كنـت أعـرف بجهلـي مقـــدار وصـــل أحـــبتي حـــتى هجـــرت فقلـــبي
عـــن وصـــلهم محجـــوب حـــتى مـــتى بالقطيعـــة والصـــدّ عمـــري ينقضـــي

عـــودوا إلى الوصـــل عـــودوا وحيـــــاتكم وأتـــــوب

فإن قيل : فكم تتوب وتنقض ، ونتعرض لك وأنت عنا معرض ؟ فقل :

من الساعة إن سمحتم بالصلح قلبي ينصلح وينصـلح كـل حـال مـن كلـي المعيـوب
تـرى تـزيل الوحشـة ونصطلح بعد الغضب ونجتمـع بعـد فرقـة ونبلـــغ المطلـــوب
وافر حتى يـوم أنظر جمـال وجـه أحـبتي ويشـفى بـالتلاقي فـــؤادي المكـــروب
وأزور قـبر الهـادي خـير الأنـام المصـطفى الهـاشميّ التـهامي المجـتبى المحبـوب
صلى الله علـي وسـلم رب السـموات العلـى مـا دام قلـبي إليـه علـى الـدوام طـروب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الرابع والثلاثون

في مناقب معروف الكرخي رحمة الله عليه

الحمد لله الرحيم الرؤوف الكريم العطوف ، المعروف بالمعروف ، الواحد الأحد الذي لا يتأثّر بالوحدة ولا يتكثر بالألوف ، الغنيّ في ملكوته عن الوزير المشير والأليف والمألوف ، العالم فوق النجوم وما تحت التخوم ، فستر الغيب عنده مكشوف ؛ استوى على العرش استواء منزهاً عن الحركة والجلوس والوقوف ، أحمد الله سبحانه وتعالى لما دفع من المخوف ، وأشهد أن لا إلّـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لسانه بالصدق محفوف ، وكفه على الامتداد إلى غير الحق مكفوف ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله أرسله إلى الشريف والمشروف ؛ وبشر بالجنة الدانية القطوف ، وحذر من النار الحامية العسوف ، ولبس الصوف وانتعل المخصوف ، وكان من الله بمكان مكين ومقام موصوف . اللهم صلّ على هذا النبي الكريم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الشم الأنوف ، وسلم عليه وعليهم ما صفّ في الصلوات من الجماعة صفوف :

هذا الولي الـذي بـالخير موصـوف ... واسمه في الورى لا شك معـروف
هـو الـوليّ الـذي أعطـى كرامتـه ... حـديث سـنّ لـه بـالبرّ مـألوف
له الكرامـات عنـد الله قـد جمعـت ... وشـوقه زائـد والطـرف مطـروف
مـا نـام عـن خدمـة الله ليلتـه ... وقد غدا السرّ منه وهـو مكشـوف

هو معروف وهو والله بالخير موصوف ، وكنيته أبو محفوظ واسم أبيه فيروز وهو منسوب إلى كرخ بغداد ، وكان أبواه نصرانيين ، وكان معروف في صغره يصلي بالصبيان فكان يعرض الإسلام على أبويه فيضجان منه فأسلماه يوماً إلى معلم دينهما ليعلمه فأجلسه قدامه وقال له : يا بنيّ أنت وأبوك وأمك كم أنتم في العدد ؟ فقال : ثلاثة ، فقال : قل ثالث ثلاثة ، فصاحت به الغيرة : إياك أن تذكر غيره فتهوي في مهاوي الحيرة ، واحذر أن تتجاوز من الأحد إلى أحد فتضرب بسياط البعد والكمد ، قال معروف : فطاب لي سماع هذا الخطاب ، ثم رفع الحجاب ، وزال الاحتجاب فرأيت كأساً من المحبة والإخلاص ، مكتوباً عليه بقلم القبول والاختصاص ، على الجانب الواحد : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ : [البقرة : ١٦٣] وعلى الجانب الثاني : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ : [النحل : ٥١] وعلى الجانب الثالث :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ : [المائدة : ٧٣] وعلى الجانب الرابع : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ :[طه : ١٤] فلما شربت ذلك الكأس ، ذهب عني البأس ، وزال الغيّ والالتباس ، فغبت في سكرتي وطبت في حضرتي ، وناديت بلسان فكرتي :

جسدي على حكم الضنى موقوف أبداً وطرفي بالبكا مطروف
والقلب حول حماكمو ورضاكمو يسعى على قدم الصفا ويطوف
وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي والفضل أن لا ينكر المعروف

ثم قال له المؤدب قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه ضرباً مبرحاً ثم أحضره ، وقال له : قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه أشدّ من الأول وأمر أبويه فحبساه في خزانة فمكث فيها ثلاثة أيام كل يوم يرمون له رغيفاً وشربة ماء فبكت أمه وقالت لأبيه : إن ولدك صغير وأخاف أن يعتريه في هذه الخزانة جنون فأخرجه منها ففتحا عليه الباب فوجدا الثلاثة أرغفة لم تكسر فراوداه على الخروج فأبى فقال له : ما تريد بحبسك في هذه الخزانة ؟ فقال : إن الحبيب الذي حبستماني من أجله وجدته عندي فآنسني :

واحد لاشيء يشبهه أبداً قلبي يوحده لو رآه الجاحدون له لرأوا لا شيء يشبهه
هو فرد والفؤاد له عن جميع الخلق أفرده أنا معروف بألفته يا عذولي كيف أنكره
حيثما وجهت فهو معي هات قل لي كيف أجحده

فلما ألحوا عليه في الخروج خرج وساح على وجهه وبقي أياماً لا يأكل طعاماً ولا يذوق شراباً ولا يستظلّ بجدار وجعل أبواه يبكيان ويقولان : ليته يرجع إلينا على أيّ دين شاء فنتبعه ونوافقه ، فلما كان بعد مدة طرق الباب فقيل : من ؟ قال : معروف ، قالا : على أيّ دين أنت ؟ قال : على دين الإسلام فخرج إليه أبواه واعتنقاه وأقبلا عليه وأسلما على يديه :

تعالوا بنا نصطلح فباب الرضا قد فتح وداووا الفؤاد الذي بسيف الجفا قد جرح
فيا مدّعي حبنا دع الروح ثم انطرح ووحد جمال الحبيب وقل للعذوب استرح

وروى معروف الكرخي بإسناده عن أنس بن مالك وابن عمر رضي الله عنهم : « أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : لا تغضب ، قال : فإن لم أطق ذلك يا رسول الله ؟ قال : فاستغفر الله عزّ وجلّ كل يوم بعد صلاة العصر سبعين مرة يغفر لك ذنوبك سبعين عاماً ، قال : فإن لم يأت عليّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأمك ، قال : فإن ماتت أمي ولم يأت عليها ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأقاربك » . وروى معروف الكرخي أيضاً رضي الله عنه بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن حج واعتمر » .

وروى معروف الكرخي ﷺ بإسناده عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من قال عند منامه : اللهم آمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك ولا تكشف عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين . اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا إلا بعث الله تعالى ملكاً في أحب الساعات إليه فيوقظه فإن قام وإلا صعد الملك وبعث إليه ملكاً آخر فإن قام وإلا صعد ذلك فقام مع صاحبه الأول فإن قام بعد ذلك ودعا استجيب له ، وإن لم يقم كتب الله تعالى له ثواب أولئك الملائكة » .

[ومن كراماته ﷺ] قال ابن مردويه : كنا جالسين مع معرف الكرخي فلما كان ذات يوم رأيت وجهه متهللاً ، فقلت له : يا أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء ؟ قال لي : ما مشيت على الماء قط ولكن إذا هممت بالعبور يجمع لي طرفاها فأتخطاها . وقال محمد بن واسع رحمه الله عليه : كنت عند معروف أذان المغرب وجئت إليه من الغد ، فإذا في وجهه أثر فقلت لشيخ إلى جانبي كان أنس به : سله ، فقال له يا أبا محفوظ كنا عندك أمس وما بوجهك هذا الأثر وجئنا اليوم وهو في وجهك فما السبب في ذلك ؟ فقال معروف : لا تسأل عما لا يعنيك عافاك الله ، فقال له الرجل : سألتك بالله أي شيء سببه ؟ فقال معروف : ويحك ما حملك على هذا ! قال : ثم تغير وجهه ثم قال : صليت البارحة ههنا العتمة واشتهيت أن أطوف بالبيت فمضيت إلى مكة شرفها الله تعالى ، فطفت ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها ، فرأيت صورة حسنة فحدقت إليها بالنظر فزلقت رجلي في الباب فأصاب وجهي ما ترى وإذا أنا بقائل يقول : يا هذا لو زدت زدناك . وقال : حدثنا محمد بن مخلد قال : قرأ عليّ الحسن بن عبد الوهاب وأنا أسمع ، قال : قالوا : إن معروفاً الكرخي يمشي على الماء ولو قيل لي إنه يمشي في الهواء لصدقت . وقال عبد الصمد بن حميد : سمعت عبد الوهاب يقول : ما رأيت أزهد من معروف .

[ومن كلامه ﷺ] قال إبراهيم البكاء رحمه الله عليه : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل . وجاء يحيى بن معين وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما عند معروف ، فقال يحيى : أريد أن أسأله عن سجدتي السهو ؟ فقال له أحمد : اسكت فلم يسكت ، فقال له : يا أبا محفوظ ما تقول في سجدتي السهو؟ فقال له معروف : عقوبة للقلب لما اشتغل وغفل عن الصلاة ، فقال له أحمد بن حنبل ﷺ : هذا من كيسك . وقال : أقام معروف الصلاة يوماً ، ثم قال لمحمد بن أبي توبة تقدم فصلّ بنا وذلك أن معروفاً كان لا يؤم إنما يؤذن ويقيم ويقدم غيره ، فقال له محمد بن أبي توبة : إن صليت بكم هذه

الصلاة لم أصلّ بكم صلاة أخرى ، فقال له معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل . ومن كلامه أيضاً ﷺ : الدنيا أربعة أشياء : المال والكلام والمنام والطعام . فالمال يطغي ، والكلام يلهي ، والمنام ينسي ، والطعام يقسي . وقال سري السقطي رحمه الله : سمعت معروفاً الكرخي يقول : من كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه نفعه ، ومن تواضع له رفعه

تواضع لرب العرش علك ترفع فما خاب عبد للمهيمن يخضع وداو بذكر الله قلبك إنه
لأشفى دواء للقلوب وأنفع ولا تغترر بالمكر منك وبالمنى فمن خادع الله المعظم يخدع

[قيل لمعروف ﷺ] : بأي شيء يخرج حب الدنيا من القلب ؟ قال : بصفاء الود ، وحسن المعاملة ، وللفتيان علامات ثلاث : وفاء بلا خلاف وعطاء بلا سؤال ومدح بلا جود . وعلامات الأولياء ثلاث : همتهم لله وشغلهم فيه وفرارهم إليه . وجاء رجل إلى معروف الكرخي ﷺ فقال له : يا سيدي عرفني كيف أصل إلى الله تبارك وتعالى ؟ فأخذ بيده وأتى به دار أمير فوجد على الباب عبداً قائماً مكسور الرجل ، فقال لسائله : كن مثل هذا تصل إلى الله تعالى وأشار الشيخ يعني كن عبداً مكسوراً وقفاً على الباب :

العبد واقف على أبوابكم مكسور واحسرتي إن أمت في حبكم مهجور
يا ليت شعري تراكم تعتقوا المأسور عسى إذا ما التقينا ينمحي المسطور

[وأنشد آخر] :

بالله عليكم دعوا ما بيننا مسطور وامحوا بإحسانكم ما قد حوى الدستور
لا يسمعون العدا حين ينقري المسطور ترجع فضيحة وقلبي ينثني مكسور

ومما يدل على شدة خوفه رحمه الله قال أبو بكر بن أبي طالب : دخلت مسجد معروف الكرخي وكان في منزله فدخل إلينا ونحن جماعة . فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرددنا عليك السلام فقال : حياكم الله بالسلام في دار السلام ونعمنا وإياكم في الدنيا بالإحسان وفي الآخرة بالغفران ثم أذن فلما أخذ في الأذان اضطرب وارتعد حين قال : أشهد أن لا إلّه إلا الله وقام شعر حاجبيه ولحيته واضطرب حتى خفت أن لا يتم أذانه وانحنى حتى كاد أن يسقط . وقال الثقفي : سمعت عبد الله بن محمد الوراق رحمه الله يقول : ربما كنا مع أبي محفوظ في المجلس وهو قاعد يتفكر ثم يفرغ ثم يقول : واغوثاه. وقال القاسم البغدادي رحمه الله عليه : كنت جار معروف الكرخي فسمعته ليلة في المسجد ينوح ويبكي وينشد ويقول :

أي شيء تريد مني الذنوب شغفت بي فليس عني تغيب
ما يضر الذنوب لو أعتقتني رحمة لي فقد علاني المشيب

وقال يحيى بن الحسن رحمه الله : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : رأيت رجلاً بالبادية شاباً حسن الشباب وله ذؤابتان وعلى رأسه رداء قطن وعليه قميص كتان وفي رجليه طاق نعل قال معروف : فتعجبت منه في مثل ذلك المكان فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من مدينة دمشق ، قلت له : ومتى خرجت منها ؟ قال : ضحوة النهار فتعجبت منه وكان بينه وبين دمشق مسافة بعيدة ومراحل كثيرة ، قلت : وأين تقصد ؟ قال : مكة فعلمت أنه محمول بالعناية فودعته ومضى ولم أراه حتى مضت ثلاث سنين ، فلما كان ذات يوم وأنا جالس في منزلي أتفكر وإذا بالباب يطرق فخرجت فإذا هو صاحبي فسلمت عليه ، وقلت : له أهلاً ومرحباً وأدخلته المنزل فرأيته منقطعاً والهاً حافياً حاسراً ، فقلت له : ما الخبر ؟ فقال : يا أستاذ لاطفني حتى أدخلني الشبكة فرماني ، فمرة يلاطفني ومرة يهددني ومرة يجيعني ومرة يكرمني فليته أوقفني على بعض أسرار أوليائه ثم ليفعل بي ما شاء . قال معروف : فأبكاني كلامه ، فقلت : حدثني ببعض ما جرى عليك منذ فارقني ، فقال : هيهات أن أبديه وهو يريد أن أخفيه ، ثم استفرغه البكاء ، فقلت : وما فعل لك ؟ فقال : جوعني ثلاثين يوماً ، ثم جئت إلى قرية فيها مقثأة كمأ قد أخرجت الورق فقعدت آكل من الورق فنظرني صاحب المقثأة فأقبل يضربني على ظهري وعلى بطني . ويقول : يا لص ما أخرب مقثأتي غيرك وأنا منذ كم أرصدك حتى وقعت عليك . والله لأعذبنك أنواع العذاب فبينما هو يضربني إذْ أقبل فارس نحوه مسرعاً وقلب السوط على رأسه . وقال له : ويلك تعمد إلى وليّ من أولياء الله تعالى فتقول له : يا لص وتضربه وتهينه ولم يأكل من مقثأتك غير الورق ، قال : فأخذني صاحب المقثأة وقبل يدي ورأسي واعتذر إليّ وذهب بي إلى منزله وأكرمني وأحسن إليّ وسبل مقثأته للفقراء والمساكين من أجلي ، فقلت له : أنا من أصحاب معروف ، فقال : صف لي معروفاً فوصفتك له فعرفك فما استتم كلامه حتى دق الباب صاحب المقثأة ودخل إلينا ، وكان موسراً فخرج عن جميع عن جميع ماله وفرقه على الفقراء وصحب الشاب سنة ثم خرجا إلى الحج فحجا واعتمرا وماتا جميعاً ودفنا بالمعلاة من مكة رحمهما الله تعالى :

الله حسبي في الأكوان آيات ... فيها لمعرفة الرحمن إثبات
انظر إلى كل مخلوق تعاينه ... إذا تعتريه من التغيير حالات
جمع وفرق وصفو بعده كدر ... قرب وبعد وإعراض وإخبات
تصريف رب حكيم مالك صمد ... وكل فعل له في اللوح ميقات
لله أيام أنس قد صحبت بها ... قوماً همو في سلوك الحق سادات

قوم مضوا كانت الدنيا بهم نزهاً ... والدهر كالعيد والأوقات أوقات
ماتوا وعشنا فهم عاشوا بموتهم ... ونحن في صور الأحياء أموات
هم الأحبة إن ماتوا وإن رحلوا ... على مضاجعهم من التحيات
أضحت أحاديثهم ما بيننا سمراً ... وذكر أوقاتهم للقلب أقوات
أخي فبادر إلى زاد تحصله ... ولا تسوّف فللتأخير آفات
وكم سرور أتى من بعده حزن ... وكم أتت بعد أحزان مسرات
يا رب صلّ على أعلى الورى شرفاً ... محمد ما علت بالذكر أصوات
وآله وعلى الأصحاب كلهم ... مني السلام عليهم والتحيات

[ومن دعائه ﷺ] : اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه . وجاء رجل إلى معروف رحمه الله ، فقال : ادع الله أن يلين قلبي ، فقال : قل يا ملين القلوب لين قلبي قبل أن تلينه عند الموت . قال سري السقطي رحمه الله عليه : هذا الذي أنا فيه ما نلته إلا ببركة معروف الكرخي ﷺ . وذلك أن انصرفت مرة من صلاة العيد فرأيت معروفاً ومعه صبي أشعث وهو باك مكسور القلب ، فقلت : ما لي أرى معك هذا الصغير باكياً . فقال لي : رأيت الصبيان يلعبون وهذا الصبي واقف مكسور القلب لا يلعب معهم فسألته فقال لي : أنا يتيم مات أبي ولم يخلف لي شيئاً وليس معي شيء أشتري به جوزاً ألعب به مع الصبيان ، فأخذته معي لعلي أجمع له نوى يشتري به جوزاً يلعب به . فقلت له : أعطني إياه أغير من حاله ما تشعث قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم ، قال : خذه أغنى الله قلبك بالإيمان وعرفك الطريق إليه في السر والإعلان . قال السري : فأخذت الصبي ومضيت به إلى السوق فكسوته كسوة حسنة واشتريت له جوزاً فلعب به مع الصبيان نهاره فقالوا : من فعل بك هذا المعروف ؟ فقال : سيدي السري ومعروف فلما مضى الصبيان أتى إليّ وهو فرحان فقلت له : كيف كان يومك ؟ فقال : يا عم كسوتني من ملابس الإحسان وفرحتني بين الصبيان وجبرت قلبي بعد الكسر والأحزان فالله تعالى يجبرك بين يديه ويفتح لك طريقاً إليه . قال : فسررت بذلك سروراً شديداً وجددت لي بالفرح عيداً جديداً :

كرر حديثهمو فما أحلاه ... وألذه عندي وما أهناه
روّح به روحي وحدّث عنهمو ... فحديثهم للقلب ما أشهاه
بالله واهتف مرة أخرى بهم ... فعسى ينال الصب منه مناه
ولنا رموز ليس يعرف شرحها ... إلا الذي نشر الهوى وطواه
ولقد تنادمنا بكل لطيفة ... سراً ولم تتلفظ الأفواه

[قال عامر بن عبد الله الكرخي رحمه الله] : كان بجواري رجل نصراني . فبينما أنا ذات يوم في منزلي وإذا به قد أتاني وقال لي : يا أبا عامر إن لي عليك حق الجوار ، وأنا أسألك بحق خالق الليل والنهار إلا ما مضيت بي إلى وليّ من أولياء الله الأبرار ليدعو لي أن يرزقني الله ولداً فقلبي إليه بالأشواق وفي كبدي منه لوعة واحتراق . قال : فأخذته ومضيت به إلى معروف الكرخي رحمه الله عليه فأخبرته بأمره فدعاه معروف إلى الإسلام. فقال له : يا معروف إنك لن تقدر على هدايتي إلا أن يهديني العلام . وأنا أسألك الدعاء فيما جئت فيه والسلام فرفع معروف يديه وقال : اللهم إني أسألك أن ترزقه ولداً يكون باراً بوالديه ويكون إسلامهما على يديه فاستجاب الله له ورزقه ولداً فاق بكمال عقله على أهل زمانه وعلا بنجابته على أبناء جنسه وأقرانه . فلما كبر أتى به أبوه إلى معلم دينهم ليعلمه كتابهم ويوضح له أسبابهم فأجلسه المعلم بين يديه ودفع اللوح إليه وقال له : قل ! قال : وما أقول " ولساني عن تثليثكم معقول وقلبي بحب ربي مشغول ، فقال له المعلم : يا بني ما عن هذا سألتك ، فقال عمّ سألتني ؟ قال : سألتك عما جئت إليّ تتعلمه وأتيت تتفهمه ، فقال له : علمني شيئاً يقبله عقلي ويدركه ذهني ونقلي :

فقال : قل يا بنيّ ألف فقال الصغير :	ألف الوصل ألفت كل قلب	لحبيب صفاته أزليه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل باء فقال :	باء عين البقاء أحيا نفوسا	لم يدع حبه لها من بقيه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل تاء فقال :	تاء توق القلب يكشف عنها	كل شك تكون منه بريه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل ثاء فقال :	ثاء ثوب الثياب ثبت قوما	قد ثووا في المقاعد العنديه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل جيم فقال :	جيم نور الجمال تجلى عليهم	في تجليه بكرة وعشيه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل حاء فقال :	حاء حمد الإله أحيى قلوبا	فحماها من الخصال الدينه
فقال له المعلم : يا بنيّ قل خاء فقال :	خاء خوف الإله أذهب عنهم	كل حزن لهم وكل رزيه

وما زال المعلم يلقنه حرفاً حرفاً وهو يجيبه عنها بكلام منظور مقفى إلى أن ذهل عقل المعلم ووجد في قلبه مما سمعه منه انتعاش ، وعلم أن كل دين غير دين الإسلام لاش ، فقال له المعلم : شاباش لك يا موحد المحبوب شاباش :

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أخرج المرعى
لقد خاب من يسعى إلى غير بابه ... وضلّ الذي يوماً إلى غيره يدعى
هو القصد لا شيء سواه فمن سعى ... إلى غير ذاك القصد يا خيبة المسعى
هو الماجد البرّ الرحيم وغيره ... من الناس لا يستطيع ضراً ولا نفعا
يرى العبد يعصيه ويستر ذنبه ... ويرزقه من غير ما أنه يسعى
يعامل بالغفران والصفح من عصى ... ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا

فسبحانه لا رب في الكون غيره يجب الذي يلقي إلى قوله السمعا

قال : فلما سمع المعلم كلامه الذي سلب عقله وشجاه علم أن ما أنطقه إلا الذي حلقه وأنشأه ، فقال عند ذلك في سر نجواه : أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أخذ الصبي وأتى به إلى أبيه ، فلما رآهما أبوه قد أقبلا صار وجهه بالبشر مهللاً ، فقال للمعلم : كيف وجدت ولدي في ذكائه وفطنته ، فقال له المعلم : اصغ إلى مقالته ، ثم عرض عليه المقال فقال أبوه : والذي يغيث المضطر والملهوف ما نال ولدي هذه المنزلة إلا ببركة دعوة معروف . ثم قال : الحمد الله الذي أنقذنا بك يا بنيّ من الضلال بعد أن كنا على أسوأ حال ، وأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أسلمت أمّ الصبي وكل من في الدار وكسروا الصليب وقطعوا الزنار وأنقذهم الله بدعوة معروف من النار :

ما مضى لا يعاد منكم فإنا قد عفونا عما مضى واصطلحنا أبشروا بالمنى فإن حمانا
من أتاه ينال مايتمنى فاز من جاءنا بذل وأضحى من جميع الأنام أعلى وأغنى
والذي جاءنا بزهو وعجب خاب في الناس سعيه وتعنى كم عزيز وافى حمانا مدلا
حجبته أيدي الشقاوة عنا والذي جاءنا بإخلاص قلب حاز فضلاً ونال عزاً وأمنا

[قال أحمد بن العباس رحمه الله عليه] : خرجت من بغداد أريد الحج فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة ، فقال لي : من أين خرجت ؟ قلت : من بغداد هارباً لما رأيت فيها من الفساد خفت أن يخسف بأهلها ، فقال : ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعة رجال من الأولياء هم حصن لهم من جميع البلايا ، قلت : فمن هم ؟ قال : أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار فرجعت وزرت تلك القبور ، وحصل لي أمر عظيم من الفرح والسرور :

لأحمد أوصاف وبالعلم اشتهر ومعروف لا تنساه فيمن قد انحصر
وبشر ومنصور ولا سيما هما لهم أعين في الليل ما ملت السهر

[وقال أبو الفتح بن بشر رحمه الله عليه] : رأيت بشراً في منامي في بستان وبين يديه مائدة فقلت له : أبا نصر ما فعل الله لك ؟ قال : رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها ، وقال لي : كل من جميع ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم نفسك الشهوات في دار الدنيا قلت له : فأين أخوك أحمد بن حنبل ؟ قال : هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلاما لله تعالى غير مخلوف ، قلت له : فما فعل الله تعالى بمعروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ، وقال : هيهات حالت بيننا وبينه الحجب : إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره وإنما عبده شوقاً إليه فرفعه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى

ورفع الحجب بينه وبينه فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى :

معروف كل الورى لا شك تعرفه ... بالبرّ والخير والأنعام توصفه
لقد أتى وله علم ومعرفة ... وخدمة في جنان الخلد توقفه

[قال محمد بن عبد الرحمن الزهري رحمه الله عليه] : سمعت أبي يقول : قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج . وقال يحيى بن سليمان كانت لي حاجة ، وقد تعسرت عليّ فأتيت قبر معروف فقرأت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] ثلاث مرات ، وأهديتها له ولأموات المسلمين ثم ذكرت حاجتي فما رجعت إلا وقد قضيت حاجتي . وقال أبو بكر الخياط رحمه الله : رأيت كأني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الرياحين ، وإذا بمعروف قائم فيما بينهم يذهب ويجيء فقلت له : يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، ثم أنشأ يقول :

موت التقيّ حياة لا نفاد لها ... قد مات قوم وهم في الناس أحياء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
ماتوا وعشاقهم عاشوا بموتهمو ... ونحن في صفة الأموات أحياء

[وأما تاريخ موته] فقال أبو بكر العجوري رحمه الله : سمعت ثعلباً يقول : مات معروف الكرخي رحمه الله سنة مائتين ، قال أبو القاسم النضري من بني نضر بن معين قال : حدثني أبي قال : بلغني أنه صلى على معروف ثلثمائة ألف إنسان ، قال عبد الرحمن بن محمد الوراق جاء رجل من أهل الشام إلى معروف الكرخي فسلم عليه ، وقال له : إني رأيت في المنام يقال لي : اذهب إلى معروف الكرخي فسلم عليه فإنه معروف في أهل الأرض معروف في أهل السماء . وبلغني عن بعض القدماء أنه قال : مات أخ لي فرأيته في المنام بعد عام ، فقلت له : يا أخي ما فعل الله بك ، قال : الآن أعتقت ، دفن عندنا معروف الكرخي فأعتق عن يمينه ثلاثون ألفاً ، وعن شماله ثلاثون ألفاً ، ومن بين يديه ثلاثون ألفاً ، ومن خلفه ثلاثون ألفاً :

سلكت طريق الفقر ظناً بأنني ... أوافق بشراً أو أصاحب معروفا
ودمت على حسن العبادة عاكفاً ... وأصبح حسن الظن حولي معكوفا
ولم أبد يوماً للخلائق قصتي ... وما زلت في ثوب الصيانة ملفوفا
فما صح لي فقر ولا صح لي غنى ... بل ازددت في علم التقلب تعريفا
فلم أر لي كالصالحين وسيلة ... ألذ الورى عرفاً وأطيب معروفا

رجال إذا ما طبق الأرض حادث ... رموه بصدق العزم فانجاب مكشوفا
هم العروة الوثقى وهم أنجم الهدى ... بهم يذهب الله المصائب تلطيفا
إذا وجدوا في الوقت كانوا طرازه ... وقد طرزوا من قبل ذاك التصانيفا
صفاتهمو أسنى من الشمس في الضحى ... وأحسن من در القلائد مصفوفا
فيا رب وفقنا كما قد منحتهم ... ووفقهم كي لا نحاول تحريفا
وهبنا لهم يا ذا الجلال فإننا ... أتيناك نخشى منك زجراً وتخويفا
وليس لنا من شافع غير سيد ... به الضر عنا عاد في الحشر مكشوفا
رسول الهدى جلي الصدا كاشف الردى ... أنلنا به يا رب في الحشر تخفيفا
عليه صلاة الله ما مرت الصبا ... وزاد حماه من عطاياه تشريفا

المجلس الخامس والثلاثون

في ذكر الأولياء والأبرار والصالحين والأخيار

الحمد لله الذي خص بحسن اصطفائه خواص أوليائه الأبرار ، وأسرى بأسرارهم في ليل نيل أوطارهم إلى عالم الأسرار ، قاموا بواجب حقه فجعلهم أمناء على خلقه العبيد منهم والأحرار ، ترفع على أيديهم قصص السائلين وتغفر ببركاتهم للخاطئين الذنوب والأوزار ، فهم بأمره متصرفون في البلاد لمصالح العباد البادين منهم والحضار ، فمنهم النقباء والأبدال ، ومنهم النجباء والرجال ، ومنهم الأقطاب الأخيار ، ومنهم الغوث الذي يسقى به الغيث وتدرّ ببركته الضروع والزروع والثمار ، فالنقباء سبعون وهم بمصر دون سائر الأمصار ، والأبدال أربعون : وهم بالشام كالشامة الواضحة لذوي المعروفة والاستبصار ، والنجباء ثلثمائة : استخفلهم بالغرب للقيام بالحرب فهم لدينه حماة وأنصار ، والرجال عشرة وهم بالعراق وشرابهم قد راق وصفاً من الأكدار ، والأقطاب سبعة أركزهم بالأقاليم السبعة لمنافع العباد في سائر البلاد والأقطار ، والغوث واحد قد أقامه بمكة المشرفة المعظمة الذكر والمقدار ، فهؤلاء أمناء سره المصون ، وخزان علمه المكنون ، إلى حين انقضاء الأعمار ، فلولا وجودهم لغاضت العيون والأنهار ، ولولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار ، وتعطلت الأرض

من الزروع والثمار ، فهم في دائرة إرادته ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار . إذا غلقت الملوك أبوابها رفعت لهم الأستار ، وإذا أرخت السلاطين حجابها تجلى لهم الواحد القهار ، فلو احتجب عن أحدهم طرفة عين لدكت الجبال وزلزلت الأقطار ، ونادى قتيل الوجد منهم بلسان الاشتياق والاشتهار .

[كان وكان]

من ذا الذي في الحضرة ... يشرب بكاسات الصفا ... من صرف صافي المحبة ... ويستطيع فرار
قوم تراهم نشاوى ... من وجدهم بحبهم ... وهم حيارى سكارى ... من غير شرب خمار
لهم حقائق رقائق ... على الخلائف تنعجم ... محلها من بوارق ... خوارق الأفكار
هبت عليهم نسيمة ... فاستنشقوا من نشرها ... طافت سحيراً ومنها ... تنسموا الأخبار
وحين وافت وطافت ... تفردوا وتجردوا ... عن الوجود وولوا ... عن سائر الأغيار
قلوبهم معمورة ... بحب مولاهم فلا ... يضرّهم في الظاهر ... ملابس الإنكار
فازوا بما قد حازوا ... من المكارم والنهى ... وأحرزوا بالعناية ... نهاية الأوطار
نالوا المنا والحظوة ... بقربهم عند الملك ... وخصهم بالجلوة ... في خلوة الأسحار

فسبحان من قرّب أقواماً لحضرته وحجبهم عن الأغيار ، وأبعد آخرين فضربهم بسيف البعد والانتهار ، نصب فخّ المحبة للسيد فعلق بحبل حبه الجنيد ، فحصل له العز والفخار ، وأرسل عقبان التوفيق إلى شقيق فجذبه بزيق التمزيق والافتقار ، ومنّ بالمزيد على أبي يزيد فلزم التجريد وطلب الزيادة والإكثار ، وجاد بالمعروف على معروف فعمر قلبه بالمعرفة والاستبصار ، وتفضل على الفضيل فشمر في الخدمة الذيل وأدلج في طلبه وسار ، وسقى صرف المزاج للحلاج فسكر وهاج وباح بالأسرار ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده ولم يطق اصطبار .

[كان وكان]

ياذا الذي قد سقاني ... من صرف كاسات الهوى ... وقال لي لا تغني ... فتهتك الأستار
ولو سقى فرد قطرة ... مما سقاني للجبل ... غنى وصاح وأضحى ... بين الجبال غبار
القوم دارت عليهم ... في الليل كاسات الصفا ... فأصبحوا في البرايا ... سكرى بغير خمار
منها الجنيد تروّى ... وبشر بشر بالفرح ... ومن سناها الشبلي ... بدت له الأنوار
وكم كتم ابن أدهم ... حاله وذو النون اختفى ... فصار بين الندامى ... معروف بالإشهار
قوم دعوا فأجابوا ... وطهروا أسرارهم ... وأخلصوا في المحبة ... لعالم الأسرار
فهم رجال الحقيقة ... وهم ملوك الآخرة ... وهم شيوخ الطريقة ... لهم سما المقدار
يا فوز من كان سالك ... طريقهم أو يقتدي ... أو يهتدي بهداهم ... ويتبع الآثار
بهم عن الخلق تدفع ... كل البلايا والمحن ... لولا سناهم لكانت ... تزلزل الأقطار

فهم طراز الدنا وهم شموس للهدى بهم ترى الأرض تنبت وتنزل الأمطار

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ : [يونس : ٦٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا خوف عليهم في الدنيا ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، بل يتلقاهم مولاهم بالرحب والتكريم ، ويعطيهم النعيم المقيم . وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قيل لرسول الله ﷺ : « من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما عملوا أنه سيتركهم ، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه . خلقت الدنيا عندهم فما يجدّدونها ، وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها ، فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها ، فيشترون بها ما يبقى لهم ، نظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فما يرون أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يجدون » :

قوم جفوا لذة دنياهم وآثروا خدمة مولاهم
فلا قرار منهم دونه ولا جنود النوم تغشاهم
واصلهم والناس في غفلة عنهم وقد أكرم مثواهم
فهو وليّ لهم دائماً أكرم أولاهم وأخراهم

[وقال ابن ظفر رحمة الله عليه] : دخل أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه الكتاب وهو صغير فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : [المزمل : ١ـ٢] قال لأبيه طيفور ابن عيسى : يا أبت من ذا الذي يقول له الحق سبحانه وتعالى هذا الخطاب ؟ فقال : يا بني ذاك محمد ﷺ ، فقال : يا أبت مالك ما تفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا بني أمرخص به رسول الله ﷺ ؟ ثم خفف عنه في سوره طه . فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ : [المزمل : ٢٠] قال : يا أبت إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون من الليل ، قال أبوه : نعم أولئك أصحابه ﷺ ، قال : يا أبت فأيّ خير في ترك شيء فعله رسول الله ﷺ وأصحابه ؟ قال : فكان أبوه بعد ذلك يقوم الليل كله فانتبه أبو يزيد ليلة فقال : يا أبت علمني أصلي معك ، قال : يا بنيّ ارقد فإنك صغير بعد ، فقال : يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم وقال لي ربي : ما فعلت ؟ أقول لربي : قلت لأبي : علمني أصلي معك ، فقال لي : ارقد فإنك صغير بعد ، فقال أبواه : لا والله ما أريد أن تقول ذلك ، ثم علمه يصلي فكان بعد ذلك يقول الليل ويصلي غالبه :

أيها القائمون في حندس الليـ ـل وقد أسدلت ذيول الظلام
قد وصلتم حمى الوصال فطيبوا وانزلوا وابشروا بكل مرام
هذه دارنا ونحن كرام ربحت عندنا ضيوف الكرام
إن طلبتم قرى وجدتم لدينا كل ماتشتهي نفوس الأنام
قد رفعنا حجابنا فاشهدونا وادخلوا خلوة الرضا بسلام

فللّه درّ أقوام ما زالت نياق وجدهم تسرى في ليل نيل قصدهم حتى بلغوا المنزل وحصلت لهم العناية وكان عمر بن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلي فيها ما يسره الله عزّ وجلّ فإذا دخل وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرغ خده على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسماء مكتوب عليها : هذا براءة من النار من الملك العزيز ، لعبده عمر بن عبد العزيز :

طلعت شموس طويلع فلي الهنا وحنى عليّ محجب بالمنحنى
وحنى على فقري إليه وذلتي متعطفاً متلطفاً متحننا
هبت نسيمة قربه لمحبه فكسا الوجود بها المهابة والسنا
رفع الحجاب عن الجمال وقال لي بتلطف أهلاً بطارق حينا
وغدت عليّ لطائف من قربه وأنالني ما أرتجيه من المنا

[وقيل] : صعد بن عمار الواعظ يوماً منبره بالعراق فأخذ في المواعظ والتخويف والزجر والتعنيف ، حتى كادت النفوس تهيم قلقاً وتموت فرقاً ، وكان في المجلس شاب مسرف على نفسه خائف من حلول رمسه ، فانصرف وقد أثرت المواعظ في قلبه ، وندم على ما كان من ذنبه ، وأتى إلى أمه فقال لها : يا أماه دونك وما تريدين من كسر لهو الشيطان وما كنت أعددت لمعصية الرحمن ، وأخبرها بحضوره مجلس بن عمار وما حصل له من الندم على الذنوب والأوزار ، فقالت : يا ولدي الحمد لله الذي ردّك إليه رداً جميلاً ، وأنقذك من ذنوب كنت بها عليلاً ، وإني لأرجو أن يكون الله تعالى قد رحمك ببكائي عليك ، وقبلك وأحسن إليك ، فكيف كان حالك يا ولدي عند سماع الموعظة ؟ فأنشد :

شمرت للتوبة أذيالي وصرت ذا طوع لعذالي لما دعا الواعظ قلبي إليّ
طاعة ربي انحل أقفالي يا أم هل يقبلني سيدي على الذي قد كان من حالي
واسوأتا إن ردني خائباً أو صد عني حين إقبالي

ثم أقبل الفتى على صيام النهار وقيام الليل حتى نحل جسمه وذاب لحمه ودق عظمه

واصفر لونه فأتته أمه بقدح فيه سويق ، وقالت له : أقسمت عليك يا بني بالله إلا ما شربته فقد أجهدت نفسك . فلما صار القدح في يده جعل يبكي ويضطرب ويذكر قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ : [إبراهيم : ١٧] ثم صرخ صرخة عظيمة وخرّ ميتاً ، هذا والله مقام الخوف ، يا من ضيع زمانه في لعل وعسى وسوف :

على باب من أهوى يطيب التخضع ... وإن أكثر اللوّام عذلاً وأوسعوا
وفي حبه يحلو غرام ولوعة ... ووجد وتبريح وشوق وأدمع
ويجمل تعفير الخدود على الثرى ... لمرضاته إن كان ذلك ينفع
ومن لم يخاطر في هواه بروحه ... فذاك برؤيا الحسن لا يتمتع
ومن كان مشتاقاً محباً موله ... حشاشته من شوقه تتقطع
إذا قام في جنح الظلام مراقباً ... رأى النور من طور الأحبة يلمع
ناداه من يهواه فز بجمالنا ... فدونك عيشاً لم يكن عنه مدفع
وشاهد جمالاً لا يحدّ لواصف ... وبادر إلى رؤياه إن كنت تسرع
محب ومحبوب وساعة خلوة ... وقرب ووصل ليس فيه تمنع

فيا أرباب المعاملة في ظلام الليل ، فسبحان من أقامكم وأقعدنا يا معشر التائبين ، سبحان من قرّبكم وأبعدنا ﴿ إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ : [إبراهيم : ١١] .

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : ضاق صدري في بعض الأيام فخرجت أتمشى على شط النيل : فمرّ بخاطري العبور إلى ذلك الجانب فركبت سفينة وجعلت رأسي بين ركبتيّ فلم أرفعها حتى توسطت البحر ، فلما رفعت رأسي رأيت عن يميني جارية ذات حسن وجمال ، وفي حجرها عود وبين يديها خمر وعن يمينها شاب حسن الشباب نقيّ الأثواب ، فقلت في نفسي : يا نفس بعد عبادة سبعين سنة وقعت في هذه السفينة بين قوم خمارين يعصون الله بالإجهار ، فالتفتت إليّ الجارية وقالت لي : يا شيخ تشرب شيئاً ؟ فقلت : إن سقاني مولاي شيئاً شربت ، فأشارت الجارية إلى الغلام أن املأ له الكأس واسقه فملأ الكأس وأعطاني . فلما حصل الكأس في يدي لحقني وجد ، فقالت الجارية : يا شيخ لم لا تشرب من شرابنا ؟ أتريد أن أغني لك حتى تشرب ، أو تغني أنت لنا حتى نشرب ؟ فقلت : بل أغني لكم حتى تشربوا ، فقالت : غنّ لنا حتى نسمع غناءك فأنشدت :

أحسن من قينة ومزمار ... في ظلمة الليل نغمة القاري ... يا حسنه والجليل يسمعه
بحسن صوت ودمعه جاري ... وخده في التراب عفره ... وقلبه في محبة الباري
يقول يا سيدي ويا أملي ... أشغلني عنك ثقل أوزاري ... اغفر ذنوبي لأنها عظمت

ولم تـزل يـا جليـل غفـاري ذاك غـداً في الجنـان مسـكنه بـدار قـدس بقـرب جبـار

يسـكن مـع زوجـة تشـاركه يـا حسـن مختـارة لمختـار

فلما سمعت الجارية ذلك خرّت مغشياً عليها ، فلما أفاقت خلعت ما كان عليها من الديباج وكسرت العود ورمت بالخمر إلى البحر وقالت : يا شيخ إذا تبت إليه يقبلني ؟ قال : نعم ، هكذا قال في محكم الآيات : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ : [الشورى : ٢٥] فكشفت رأسها وقبلت يديّ ، وقالت : يا سيدي أنت كنت السبب في المصالحة فاسأله فيما مضى العفو والمسامحة . قال ذو النون المصري : ثم نزلنا من السفينة وتفرقنا فلم أرها بعد ذلك . فلما كان في بعض السنين حججت إلى بيت الله الحرام فبينا أنا أطوف بالبيت وإذا بجارية شعثاء وهي متعلقة بأستار الكعبة تبكي وتتضرع وتقول : إلهي بسكري البارحة وبخماري إلا ما غفرت اليوم أوزاري ، فقلت : مه يا جارية في مثل هذا المقام تقولين هذا الكلام ؟ فقالت : إليك عني يا ذا النون ، لما بتّ البارحة بكأس الهوى مسرورة ، أصبحت اليوم بحب مولاي مخمورة . فقلت لها : من أخبرك أني ذو النون ؟ فقالت : يا شيخ أنا الجارية التي تبت على يديك في نيل مصر ، فقلت : وأين ذلك الحسن والجمال ، فأنشدت :

ذهبـت لـذّة الصـبا في المعاصـي وبقـي بعـد ذلـك أخـذ النواصـي

ومضـى الحسـن والجمـال ومـالي عمـل أرتجيـه يـوم الخـلاص

غـير ظـني بـالله وهـو جميـل فيـه أخلـص غايـة الإخـلاص

ثم قالت : يا ذا النون قف مكانك حتى أعود ، فغابت لحظة ثم أقبلت ومعها طبق وعليه رطب وتين وعنب في غير أوانه ، فوضعته بين يديّ فاختلج في قلبي أني بعد عبادة سبعين سنة لم أصل إلى ما وصلت إليه هذه الجارية ، فقالت لي : يا شيخ لما تبت إليه ، واعترفت بين يديه ، رزقني صدق التوكل عليه ، ثم أنشدت :

عـش غريبـا ولا تـذل لخلـق واطلب الرزق في بلاد الحبيب ثم سر في البلاد شرقاً وغرباً

وتوكل على القريـب المجيـب فعسـى أن تنـال مـا ترتجيـه بيد اللطف من مكـان قريـب

قال ذو النون : ثم التفت فلم أرها . هذه والله صفات التائبين ، وهذه علامات المقرّبين :

إن لله عبـــــاداً طلقـوا الـدنيا وهـاموا فلـه ذلـوا فعـزوا ولـه صـلوا وصـاموا

هجروا الأهل وساحوا وعلـى الأوراد دامـوا فـإذا مـا رقـد النـا س ونـام الخلـق قـاموا

فلـهم في الليـل أحـوا ل إذا جـن الظـلام وعلـى الأفـواه منـهم حـذر اللـهو لجـام

تركـوا الشـهوة زهـداً وسـواه مسـتهام فهـي للعـالم حـلّ وعلـى القـوم حـرام

أخلصـوا في الحـب لله وعلـى الخـير أقـاموا فعلـى الـدنيا إذا لم يوجـدوا فيهـا السـلام

يا هذا لا تبرح عن الجناب ولو طردت ، ولا تزل عند الباب ولو منعت .

[قيل] : إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة التي نهي عنها ونسي عهد ربه سقط عنه لباس الجنة واستوحش منه كل شيء فيها ، فولى هارباً ، فجعل يستتر بورق الجنة ، فناداه ربه جل جلاله : أتفر مني يا آدم ؟ قال : لا يارب ، ولكن حياءً منك ، فقال له الله تعالى : أما خلقتك بيدي ، أما أسجدت لك ملائكتي ! أما نفخت فيك من روحي ! أما أسكنتك في جواري ! أما أبحتك جنتي ، اخرج من جواري فلا يجاورني من عصاني ، فبكى آدم عليه السلام ما شاء الله ، ثم قال : إلـهي إن لم ترحمني أنت فمن يرحمني ؟ . فأوحى الله تعالى إليه أن قل : سبحانك الله وبحمدك لا إلـه إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ، هذا قول مجاهد وجماعة من المفسرين :

وإنا ليرضينا رجوع وصالكم ... فردّوا لنا ذاك الوصال كما كانا
وكنا نغطي في الدنو غرامنا ... ونكتم ما نلقي فقد كان ما كانا

[وعن كعب الأحبار رضي الله عنه] قال : إذا كان يوم القيامة تخرج نار من قعر بحر عدن فتسوق الناس جميعاً إلى الموقف ، فبينما هم سكارى حيارى عطاشى مروّعين من هول الموقف إذ تجلى الحق سبحانه وتعالى فتشرق الأرض من نوره فينظر الخلائق بعضهم بعضاً وتنظر الوالدة إلى ولدها الذي كانت تشفق عليه في دار الدنيا فتعرفه فتناديه : يا ولدي أما كان بطني لك وعاء ، أما كان حجري لك وطاء ، أما كان ثديي لك سقاء فيقول : يا أماه ما الذي تريدين ؟ فتقول : قد أثقلتني ذنوبي فتحمل عني منها ذنباً واحداً ، فيقول : هيهات كل نفس بم كسبت رهينة ، يا أماه إذا حملت عنك فمن يحمل عني ؟ فبينما هم كذلك إذا بمناد من قبل الحق ينادي : يا فلان ابن فلان هلمّ إلى العرض على الله سبحانه وتعالى ، فإذا سمع ذلك النداء تغير لونه واضطربت جوارحه حياء من الله تعالى ، فإذا نظرت أمه إلى ما حل به من الوجل قالت له : ما حالك يا ولدي ؟ فيقول : يا أماه قد نوديت للعرض على الله عز وجل فكيف لي بالهرب منه ، أم كيف لي بالخلاص ؟ فبينما هي كذلك إذا أقبل ملكان يقبضان عليه ويجرانه فإذا نظرت أمه إليهما جذبته إلى صدرها وغطته بشعرها ودفعت عنه الملكين بجهدها فلم تقدر على دفعهما عنه ، فلما علمت أن لا طاقة لها بهما بكت وقالت : والذي بعثني من مرقدي لو وجدت سبيلاً لما مكنتكما منه ، ثم تودعه وهي تبكي وتقول : سألتك يا ولدي بالذي استدعاك للعرض عليه والحساب بين يديه إن أنت نجوت فلا تنسني فقد طال وقوفي وعظمت حسرتي واشتدّ كربي وعطشي . قال : فيأتي به الملكان إلى الملك الموكل بسدرة المنتهى ، فيقول له : من أيّ أمة أنت ؟ . فيقول له : أنا من أمة محمد ﷺ فيقول له : طوبى لك ولأمة محمد ﷺ ثم يزجه في النور فلا

يدري أين يذهب يميناً أو شمالاً أو خلفاً أو أماماً ، وإذا النداء من العليّ الأعلى اثبت فأنا ربك ، فسكن جوارحك وهدئ قلبك ، فوعزّتي وجلالي إني لأشفق عليك من أمك حين جذبتك إليها وضمتك إلى صدها . ثم يقول له : عبدي اقرأ كتابك ، قال : فيقرؤه فإذا مرّ بسيئة أخفاها وإذا مرّ بحسنة جهر بها ، فيقول الله تعالى : عبدي لم تجهر بالحسنة وتخفي السيئة فيبكي ويقول : يا رب تعلمت منك أنك تظهر الجميل وتستر القبيح :

أنت الذي لم تزل بالعفو متصفاً تجود حلماً على العاصي وتستره
تخفي القبيح وتبدي كل صالحة وتغمر العبد إحساناً وتشكره

ثم يقول الله عزّ وجل : عبدي كيف أخفيت ذنوبك وعيوبك عن الخلائق وبارزتني بها ، أما علمت أني مطلع عليك وناظر إليك ، فيقول : سيدي ومولاي مر بي إلى النار ، فلا طاقة لي بالتوبيخ والعار ، فيقول الله عزّ وجلّ : إن أمرت بك إلى النار ، فأين جودي وكرمي وأين حلمي ومغفرتي ؟ يا ملائكتي انطلقوا بعبدي إلى جنتي بفضلي ورحمتي :

من ذا سواك يجود قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه غفر الذنوب وجاد بالإحسان

ثم يقول : إلهي وسيدي إن لي والدة كانت في الدنيا تشتاق إليّ وتشفق عليّ وقد رأتني اليوم واستجارت بي وطمعت أنني أجيرها ، إلهي وسيدي إن كنت قد عفوت عني فاجعلها موضعي وهبها مكاني فلا طاقة لها بما هي فيه ، قال فيقول الله عزّ وجل : وعزتي وجلالي ما فرقت بينكما إلا وقد رحمتكما ، يا ملائكتي انطلقوا بهما إلى جنتي وأنا أرحم الراحمين :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ويكون منك العفو والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتني حتى كأن إساءتي إحسان
تولي الجميل على القبيح تكرماً أنت الكريم المنعم المنان

يا هذا قف على الباب تكتب من الأحباب ، والزم الآداب تحشر مع الطلاب :

يا خجلة العبد من إحسان سيده يا حسرة القلب من ألطاف معناه
فكم أسأت وبالإحسان قابلني واخجلتي واحيائي حين ألقاه
بلطفه وبفضل منه عرّفني في حبه كيف أرجوه وأخشاه
يا نفس كم بخفيّ اللطف عاملني وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلة زلت بها قدمي وما أقال عثاري ثم إلا هو
يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي وصابري فيه إيقاناً برؤياه
يا نفس من منقذي يوم الحساب غداً سواه أو مشهدي إياه إلا هو

ومن لقلب إذا لج الغرام به ... إلا الذي جملة العشاق تهواه
قم يا مشوقاً إذا ما الليل جنّ تجد ... قوماً سكارى حيارى عند ذكراه
في كل شيء له معنى تشاهده ... فمن لمعناه أبدى حسن معناه
وكيف يبعدني عن بابه وإلى ... حماه قد جئت أرجو طيب لقياه
ولي شفيع إليه لا يردّ وفي ... جماله الكل قد حاروا وقد تاهوا
محمد المصطفى المختار من مضر ... من طبق الأرض طيباً عرف رياه
أموت شوقاً ولم أحظى برؤيته ... واحسرتي فمتى أحظى برؤياه
تالله ما في فؤادي قط جارحة ... إلا وذكراه فيها لست أنساه
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت ... شمس وغابت حياء من محياه

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين .

المجلس السادس والثلاثون

في ذكر النيل المبارك

الحمد لله قاصم الجبابرة قهراً ، وكاسر الأكاسرة جبراً ؛ الذي فلق الحب وأنبت منه براً ، وأطلع الأبّ وعده للأنعام براً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ : [الفرقان : ٥٤] نطقت الكائنات بفضله فلا غرو أن فاهت الألسن بذكره شكراً ، ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : [الزمر : ٢١] وقسمه بحكمته مدّاً وجزراً ، فالأنهار تتخرق ، والغدران تتدفق وجعل لكم نيلكم الآية الكبرى ، فهو أعجبها رفداً ، وأعذبها ورداً ، وأطيبها نشراً ، وأوفرها وقراً ، جعله دالاً على غريب قدرته ، وعجيب حكمته فسبحان من خص به مصراً ، فأعجب له من بحر هو في الحر في انقضاض ، وفي البرد في انتفاض ، فإذا غاض كل ماء فاض ، وإذا أخذ الشتاء في الإعراض ، أتى هو ببلوغ الأغراض ، وملأ القلوب فرحاً وبشراً ، فكلما هاج لمفارقة خلجانه ، توحم توحم الغيور ، وماج بمحامل السرور براً وبحراً ، فتأمل كيف أقبلت قوابل مقياسه في يوم نفاسه ، تعالج فتح رحم انحباسه ، فكلما تنفس نفساً من أنفاسه ، ملأ

الوهاد مدّاً وذخراً ، وغمر البلاد بطناً وظهراً ، وعمّ العباد طيباً ونشراً ، فكم جبر بكسر خليجه كسراً ، ولكم أطلق بانطلاقه أسرى ، ولكم أبرد عند ورده كبداً حرّاً :

تراه إذا هبت به نسمة الصبا ... تجمده نظماً وترسله نثرا
هو النيل إلا أنه عند نيله ... ترى كل قطر قد أسال به بحرا
يجود إذا سنّ السحاب بوبله ... فتهتز منه الأرض إذا حملت وقرا
يفيض إذا غاض المياه كأنها ... بجدوله تسري فسبحان من أسرى
حكى ملكاً كل المياه رعية ... يفرقهم طوراً ويجمعهم أخرى

فإذا أصبحت الرياض قفراً ، وشكت الحياض بعد غناها فقراً ، وضجت عطاشها في الآفاق سهلاً ووعراً ، وقع مغيث الإغاثة والإجابة على رقعة الإنابة : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : [الشرح : ٦] وبعث من نيل نيله نوالاً مع الجاريات يسرا ، فأصبحت هنالك الأرض باسمة ثغرا ، ووجدت بعد اليبس خضرا ، واكتسبت بعد الإفلاس حللاً خضراً :

وجاد عليها النيل بالنيل فاغتدت ... بأزهارها تحكي السماء أنجما زهرا
لها كل عام كسوة بعد كسوة ... فأول ما يهدى لها الكسوة الخضرا

فسبحان من قدرته لا تضاهى ، وحكمته لا تباهى ، ونعمته لا تتناهى ، أوسع للمذنبين عفواً ، وأجزل للمطيعين أجراً ، ما أعرض معرض عن جنابه إلا لقي في طريقه خسراً ، ولا انحرف منحرف عن بابه إلا وجد حلو شرابه مرّاً ، فيا أيها الحائم حول حمى عناده لقد جئت شيئاً نكراً ، ويا أيها الهائم في فلوات إلحاده لقد صبرت على ما لم تحط به خبراً ، أما تخاف سطوة : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ : [النمل : ٥٠] تالله لقد أوضح لك السبيل فما أبقى لمقصر عذراً وبين في الدليل . فقال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ : [فاطر : ١٨] فللّه درّ العارفين تيقظوا لخدمة مولاهم من رقدات دنياهم فأفنوا أوقاتهم تسبيحاً وذكراً ، أضرم قلوبهم من محبته جمراً ؛ وأدار عليهم من كؤوس محبته خمراً ، فلما دارت السقاة ، وغنت الحداة ، مالوا بأصوات نغمات ذكره طرباً وسكراً :

أدار عليهم من مدامة حبه ... كؤوساً من التقوى فأبدت لهم سرّا
فأكرم له بحراً جلا ظلمة الصدا ... وقد ملأ الأقطار والسهل والوعرا
له فرحة عند الوفاء بحقه ... فمن أمه يلقى التهاني والبشرى
فرؤيته تجلو عن القلب همه ... وذكراه يشفي السقم والقلب والصدرا
فمصر له فيها الفخار على الربا ... وقد أصبحت تسمو على غيرها قدرا

وأمست بـه الآفـاق تزهـو بحسـنه كما قد كسا البلدان من نشرها عطـرا

فانظر يا هذا بعين الفكرة كيف ساقته القدرة من البلاد الأسوانية ليعم نفعه البرية فهو أعجب الأشياء وأغربها وأحسنها في المنظر وأنسبها وأحلاها في المياه وأعذبها ، فسبحان من حقق به الظنون ، وأقربه العيون وجعله حياة للأرواح فانبسط بقدرته ، وساح في فساح الأقطار والجهات لإحياء النبات والغصون وساق من بحر إنعامه إلى خلجان إكرامه ﴿ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : [النحل : ١٠ـ١١] فهو الذي أجراه بحكمته ، وأنشأه بقدرته ولم يخيب الظنون ، وأذن لشهود عموده عند وفاء حقوقه وحدوده بحسن النظام والقانون في كسر سده وفتح كسره فانجبر بكسره قلب كل محزون ، وعمت بركته البرك والخلجان ، وسار بيد القدرة إلى البلدان ، فروى به الظمآن وشبعت برؤيته البطون ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ : [السجدة : ٢٧] .

قـرت بحمـد الله منـا العيـون مذ هطلت سحب وفاضت عيـون
وعـم لطـف الله سـبحانه كـل الـورى فليحمـد الحامـدون
وأقبـل النيـل بأمواجـه كأنـه جـيش السـحاب الهتـون
يحيـا بـه الـزرع وينمـو بـه ومنـه تكسـى عاريـات الغصـون
وتكتسـي الأرض بـه بهجـة وتـبرز الأرض بحسـن الفنـون
فنسـأل الـرحمن نفعـاً بـه فهو المرجى عند حسن الظنون
وقـد تشـفعنا بخـير الـورى ومـن لـه في القلـب حبّ مصـون
صـلى عليـه الله مـا غـرّدت حمـائم الأيـك وأبـدت شـجون

[وحكي] أن فرعون كان يتمرد ويدعي الفرعنة والطغيان في الأرض وكان يضل قومه بهذا النيل ، إذا كان يوم النيروز وقد وفى النيل أجله وبلغ نهايته أمر بأن ينادى في الناس : إن فرعون قد وفى لكم نيلكم فاسجدوا له فكان جهال القوم يعتقدون ذلك ، فلما كان في بعض السنين قصر النيل عن وفائه ولم يأذن الله تعالى له بالطلوع فاستشعر الناس بالجوع وأحسوا بالقحط فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له : قد هلكنا وهلكت دوابنا وأهلنا أولادنا فإن كنت إلـهنا فأجر لنا نيلنا . فقال : لكم ذلك ، ثم إنه عمد إلى مسح وقلنسوة من شعر وكيس فيه رماد ، ومضى إلى مكان المقياس الآن وكانت خربة في الجزيرة المعروفة بالمقياس الآن فأمر أن لا يتبعه

أحد من قومه ولا من رعيته ودخل الخربة ونزع ثياب الملك والتاج الذي كان على رأسه ولبس المسح والقلنسوة الشعر وفرش الرماد وجعل يتمرّغ عليه ويبكي ويسجد لله عز وجل ، ويمرّغ وجهه على الرماد وهو يقول : إلـهي وسيدي أعلم أنك إلـه السموات والأرض وإلـه الأوّلين والآخرين ، ولكن غلبت عليّ شقوتي وزدت في عصياني وطغياني وأنت إلـهي وأنا عبدك وقد حكمت عليّ بما حكمت فلا تفضحني بين قومي وأنت أكرم الأكرمين فما استتمّ كلامه حتى أذن الله للنيل أن يوفي في تلك الساعة وأن يسير معه حيثما سار فكان فرعون يسير بين قومه والماء يبلّ أذياله فكانوا يغمسون أكمامهم في الماء والطين ويضربون بعضهم بعضاً فرحاً به فصارت في مصر سنة إلى الآن ويقولون نيروز أي طلع النيل ، فيما هذا إذا كان هذا عدو الله وقد أخلص لله طرفة عين فأعطاه الله تعالى ما طلب وستره في قومه ولم يفضحه عندهم فكيف بمن أخلص لله عزّ وجل عمره كله ولم يبرح في طاعته وخدمته ماذا يريد أن يعطيه في الآخرى ، وكذلك العبد العاصي إذا تاب من ذنوبه واعترف بعيوبه وتضرع إلى مولاه في سره وجهره فالله تعالى أكرم من أن يعذبه أو يفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

[وحكى ابن مسعود ﷺ] أنه إذا كان يوم القيامة وأراد الله بعبد خيراً أعطاه كتابه جهراً وقال : اقرأه سراً حتى لا يفضحه بين خلقه فيقرأ كتابه سراً فلم يسمعه أحد فتقول الملائكة : إلـهنا هذه عناية لم تسبق لأحد من العصاة وقد أوعدت من عصاك أن تعذبه وتحرقه بالنار فيقول سبحانه وتعالى : يا ملائكتي إن أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش في الحر الشديد في شهر رمضان فلا أحرقه اليوم بالنيران ، وقد عفوت عنه وغفرت له ما أسلف من الذنوب والعصيان وأن الكريم المنان :

أيهـا الهـائم المشـوق إذا مـا ... شئت تبغي الرضا وتهوى لقانا
غض عن غير حسننا كل طرف ... منك واحذر أن تشتغل بسوانا
وتخضـع ببابنـا وتضـرّع ... وتـذلل لنـا وقـف بحمانـا
واعترف بالتقصير والعجز واندب ... في المعاصي عمراً مضى وزمانا
وتوسـل بجـاه خـير البرايـا ... وتوسـل بـه تنـال رضـانا
فهو نعم الشفيع في الخلق والحشـ ... ـر ومن حوضه غداً ملآنا
فعليـه الصـلاة منـا إليـه ... ما شكت أيكة لها أشجانا

[وقيل] : إنه كان سنة لفرعون إذا بدت أوحام النيل أن يأمر ببنت من بنات أهل مصر يجلونها بأنواع الحلي ويلبسونها أفخر الحلل ويزينونها بأنواع الزينة كالعروس التي تزف إلى زوجها ثم يأمر بإلقائها في النيل كان دأبهم ذلك في كل سنة ، وكان عامة الناس وجهالهم

يعتقدون أن النيل ما يطلع حتى يرموا فيه العروس واستمر الأمر على ذلك إلى زمان خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وكان نائبه بمصر عمرو بن العاص ﷺ ، فلما أنكر عليهم ذلك كتب كتاباً إلى عمر بن الخطاب يخبره الخبر فكتب له عمر كتاباً يردّ الجواب ورقعة يقول فيها : من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك ، فألقى البطاقة في النيل ، وكان أهل مصر قد أيقنوا بالغلاء فأصبحوا وقد أجرى الله تبارك وتعالى النيل وطلع ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، كل ذلك من بركات عمر بن الخطاب وحسن إيمانه ﷺ ، وأراح الله المسلمين من تلك البدعة ، وأمر عمرو بن العاص الناس بالشكر لله والثناء عليه والتوبة من المعاصي وأبطل ما كانوا يفعلونه من المنكر ورمي البنات في الماء ، فلما رأى القبط ما فعله عمر ﷺ ساءهم ذلك وأرادوا أن يقووا دينهم ويكون ذلك منسوباً إليهم فاحتالوا بحيلة الشهيد الذي يرمونه في التابوت أوان الزيادة واتخذوه عيداً إلى الآن ، وكذلك أحدثوا الخمسة أيام التي يسمونها النسيء : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٣٧] فهذا في دينهم طغيان ، ونحن بحمد الله تعالى قد خصنا الله تعالى بأشرف الأديان وأوضح لنا فيه طرق الإيمان وخصنا بشفاعة سيد الأكوان محمد المصطفى سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله السادة الأعيان ، وأزواجه وذريته صلاة دائمة في السرّ والإعلان ، ولبعضهم في هذا المعنى :

يا أيها النيل المبارك إن تكن ... من عند ربك تأت فاجرِ بأمره
أو إن تكن من عند نفسك تأتنا ... فالله يبسط بره في برّه
كم من بلاد ليس تعرف أرضها ... ملأ الإلـه بيوتها من برّه
إن كان دفعك لا يجيء تأدباً ... إلا بإذن مليكه فبعذره
قال الصليبي اللعين بجهله ... والكفر يركض في جوانب صدره
ذا العام لم يرموا الشهيد فلم يفي ... ذا النيل إلا أن رموه بنحره
هون به وبشهره ونسيئه ... وشهيد مسراه وطينة بئره
نحن الذين لنا بجاه محمد ... عند الإلـه بحمده وبشكره
ما يرتجيه غنينا بغنائه ... وفقيرنا بالالتذاذ بفقره
ندعو و نستسقي الغمام بوجهه ... فبذاكَ أخبر عمه في شعره

وقد استجرنا بالنبيّ محمد وبآله وبصحبه وبسرّه
صلى عليه الله ما سرت الصبا وأتت بطيب ثنائه و بعطره

[**إخواني**] يفكروا في جريان هذا النيل كيف أمده الله تعالى بالمد الجليل ، والرزق الجزيل ، واللطف الجميل ، وجعله حياة للأرواح في المسير والمقيل ، فلو منعه منكم مانع أو قطعه عنكم قاطع لضاقت بكم الرحاب ، وتقطعت بكم الأسباب ، وحلت بكم الأمور الصعاب ، ولكن ترحمون بالأطفال الرضع ، والمشايخ الركع ، والدواب الرتع ، والحق سبحانه لم يمنعه عنكم بخلاً عليكم برزقه ، ولا تعجيلاً لعقوبة خلقه . وإنما يرسله رحمة إليكم و إشفاقاً عليكم شفقة لا تشبه شفقتكم على أبنائكم . ويفعل معكم من اللطف و التدبير ما لا يفعله تدبير آبائكم . فإنه سبحانه و تعالى يسوقه إليكم في وقت احتياجكم إليه ونفعه ، ويصرفه عنكم وقت حاجتكم إلى صرفه ودفعه ، لينتفع كل منكم بغرسه وزرعه ، فكيف يعصى من هذه ملاطفته بعباده في سائر الدهور ، أم كيف يبارز بالخطايا وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وقيل في المعنى :

فيا من بات يخلو في المعاصي وعين الله شاهدة تراه أما تخشى من الديان طردًا
وتحرم دائماً أبداً تراه تبارز بالمعاصي منك مولى على جهل يراك ولا تراه

أتعصي الله وهو يراك جهراً وتنسى في غد حقاً لقاه
وتخلو بالمعاصي وهو دان إليك ولست تخشى من سطاه
وتنكر فعلها وله شهود على الإنسان تكتب ما حواه
فويل العبد من صحف وفيها مساويه إذا وافى مساه
ويا حزن المسيء لشؤم ذنبٍ وبعد الحزن يكفيه جواه
ويندم حسرة من بعد فوت ويبكي حيث لا يجزي بكاه
يعض يديه من ندم وحزن ويندم حسرة ما قد عراه
فكن بالله ذا ثقة وحاذر هجوم الموت من قبل أن تراه
وبادر بالمتاب و أنت حيّ لعلك أن تنال به رضاه
ولذ بالمصطفى خير البرايا رسول قد حباه واجتباه
عليه من المهيمن كل وقت سلام عطر الدنيا شذاه

اللهم أفض علينا من بحر برّك وإحسانك واجبر قلوبنا بعفوك وغفرانك ، وارو عطاش قلوبنا بنيل نيل رحمتك ورضوانك ، واكتب لنا بالأمن من الخوف توقيع أمانك برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس السابع و الثلاثون

في مناقب عمر بن عبد العزيز ﷺ

الحمد لله الذي تعززَ في وحدانيته فهو الواحد العزيز ، وتفرَد في أزليته وأغرق العالم في بحر الحيرة و التعجيز ، أتقن خلق الموجودات فليس في إتقان صنعه نقص ولا تعويز ، زين شقة حلة السماء بنعوت البهاء و طرزها بالكواكب المشرقة أحسن تطريز ، ورقم كميها برقم الشمس والقمر كالفضة النقية والذهب الإبريز ، وحرسها من استراق السمع بالشهب الثواقب أتمّ حرس و أمنع تحجيز ، وجلاها على عيون المعتبرين أولي العقل و التمييز ، وسطح الأرض على تيار الماء و أبرزها بقدرته أحسن تبريز ، وثبتها برواسي الجبال و جعلها مسكناً للرجال والأقطاب والصالحين الأنجاب ، وخلع عليهم خلع التكريم و التعزيز ، صرف عنهم الدنيا فلم يعرفوا الادّخار والتكنيز ، وجعلهم قائمين بحقه خلفاء على خلقه لمن فهم الإشارة والتلغيز ، وخص منهم من شاء بالرفق في بلاده و النصيحة لعباده كالصحابة ومن تابعهم مثل عمر بن عبد العزيز ،رضوان الله عليهم أجمعين .

قال محمد بن سعد رحمه الله : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي ابن أمية بن عبد شمس ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ ، ويكنى أبا حفص ، ولد بالمدينة في سنة ثلاث وستين وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي ﷺ .

وعن العباس بن راشد رحمة الله عليه قال : نزل بنا عمر بن عبد العزيز فلما رحل قال لي مولاي : اخرج معه شيعه فخرجت معه فمررنا بواد حية ميتة ملقاة على الطريق فنزل عمر فدفنها ثم ركب وسرنا فإذا نحن بهاتف يقول : يا خرقاء يا خرقاء نسمع صوته و لا نرى شخصه . فقال عمر : أسألك بالله أيها الهاتف إن كنت ممن يظهر إلا ما أظهرت وأخبرتنا ما الخرقاء ؟ فقال: هذه الحية التي دفنتموها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لها يوماً : يا خرقاء تموتين بفلاة الأرض فيدفنك خير مؤمني أهل زمانه . فقال له عمر : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا من الجن السبعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في هذا الوادي . فقال عمر : آلله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم فدمعت عينا عمر ثم انصرف . وعن مجاهد قال : إن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين سبعة مضى منهم خمسة و بقي اثنان . قال خارجة : أبو بكر وعثمان و عليّ و عمر بن عبد العزيز . وعن زيد بن أسلم قال : كان لعمر بن عبد العزيز سفط فيه درع من شعر وغل و كان له بيت في جوف بيته يصلي فيه لا يدخل فيه أحد غيره فإذا

كان في آخر الليل فتح ذلك السفط و لبس ذلك الدرع ووضع الغّل في عنقه فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر ثم يعيد الدرع والغل إلى السفط فهذا دأبه مدة حياته ﷺ [مفرد] :

ذم المنـازل بعـد منزلـة اللـوى والعـيش بعـد أولئـك الأيـام

[وقال] الحرث بن يزيد جار عمر بن عبد العزيز رحمه الله : تالله لقد سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما أرخى الليل سدوله ، و غارت نجومه و هو يتململ تململ السقيم ، و يبكي بكاء الحزين فكأني أسمعه و هو يقول : يا دنيا إليّ تعرضت أم إليّ تشوّقت هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كثير ، آه من قلة الزاد و بعد السفر ووحشة الطريق ، ثم أنشد :

من العار بعد النجـدتين هجـوعي وغـدر بهـم أن لا تسـح دمـوعي
ولي زفـرات كلمـا هبـت الصـبا يقـوم منـهن اعوجـاج ضـلوعي
سـلام علـى تلـك الـديار فإنهـا ديـاري الـتى أشـتاقها وربـوعي

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ إذا صلى الصبح أخذ المصحف في حجره ودموعه تبّل لحيته فكلّما مرّ بآية تخويف ردّدها فلا يتجاوزها من كثرة البكاء حتى تطلع الشمس ، واشوقاه إلى تلك الوجوه ، واطرباه عند سماع أخبارهم ، وأأسفاه على محو آثارهم :

وأأسـفاه علـى فـراق قـوم هـم المصـابيح والحصـون والمـزن والأمـن والـتمني
والخـير والعقـل والسـكون بعـدهم العـيش لـيس يصـفو كيـف تفـاجئهم المنـون

فكـل نـار لنـا قلـوب وكـل مـاء لنـا عيـون

[وعن يزيد بن حوشب] قال : ما رأيت أكثر خوفاً من الحسن ومن عمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله . وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ يوماً قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ : [يونس : ٦١] فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار فجاءت فاطمة زوجته فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما فجاء ولده عبد الملك فدخل عليهم وهم يبكون . فقال : يا أبت ما يبكيك ؟ فقال : يا بني ودّ أبوك لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يابني لقد خشيت أن أكون من أهل النار . يا هذا كان عمر بن عبد العزيز يخاف مع عدله وأنت تأمن مع ظلمك وجودك . رؤي في المنام بعد اثنتي عشرة سنة ، فقال : الآن تخلصت من حسابي ، اسمع يا من أمن الأقدار ، وليس له عند مولاه اعتذار :

تشـاغل بالـدنيا أنـاس فأصـبحوا عن الباب محجوبين قد منعوا القربا

وأهـل التقـى لله تسـري قلـوبهم إلى غاية نـالوا بهـا المشـرب العـذبا
فجالوا بنور العلم في روضة التقـى بها أنفس الأبـرار قـد ملئـت حبـا
همو قطعوا الدنيا بخـوف وعيـدهم فـذكرُهمو للمـوت أورثهـم كربـا

[وعن عطاء رحمه الله] قال : كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ويتذاكرون الموت والقيام والآخرة فلا يزالون يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، وعن ابن حبان رحمه الله عليه قال : صليت الصبح خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ : [الصافات : ٢٤] فجعل يكررها ولا يستطيع أن يتجاوزها من البكاء . وعن سفيان قال : كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى . وعن شيخ من أهل خراسان قال : لما أراد أبو جعفر بيت المقدس نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيت المقدس ، فقال : يا راهب أخبرني بأعجب شيء رأيته من عمر بن عبد العزيز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين : بينا عمر ذات ليلة على سطح غرفتي هذه . وكان السطح من رخام ، وأنا مستلق على قفاي فإذا بماء يقطر من الميزاب على صدري فقلت : والله ما عندي ماء ولا رشت السماء ماء فصعدت لأنظر فإذا هو ساجد ودموعه تنحدر من الميزاب. وعن الحسن بن الحسن رحمهما الله قال : رأيت عمر بن عبد العزيز يبكي حتى بكى الدم .

[وروي] أن عمر بن عبد العزيز منذ وُلّيَ الخلافة لم يضع لبنة على لبنة ولم يحدث له دابة ولا امرأة ولا جارية حتى لحق بالله عز وجل ، وعن عمر بن مهاجر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي وهزني ، ثم قل : ماذا تصنع يا عمر ؟ واعجباه هذا خوف عمر مع كماله فكيف أمنك مع نقصانك ، الدنيا مرآة الآخرة فما عملته في هذه رأيته في تلك ، فأنت اليوم تعمل وغداً ترى فإن كنت عاقلاً فابك على ما جرى ، وإن كنت نائماً فستذهب عنك لذة الكرى :

لو بكـت عينـاك يـا هـذا دمـا مـا تقـدمت إلينـا قـدما كيـف يصـفو لـك ود بعـدما
نشـر الغـدر عليـك العلمـا نـح علينـا أسـفاً أو لا تـنح واسـكب الـدمع علينـا والـدما
إنمـا يصـفو وداد لامـرئ حفـظ العهـد وراعـى الـذمما لـو أردنـاك لنـا مافتنـا
ووصـلنا حبلنـا مـا انصـرما مـا رأينـا منصـفاً عاملـه منصـف في صـفقة فاختصـما

[إخواني] كانت الدنيا إذا قدمت إلى الصالحين قدموها إلى الآخرة ، فأين نحن من القوم ، كم بين اليقظة والنوم ، كان عمر بن عبد العزيز يأتيه خراج اليمن فيدخله بيت المال ويبيت في الظلام ، وكان يقول : إذا سهرت في أمر العامة أشعلت سراجاً من بيت المال ، وإذا سهرت في أمر نفسي أسرجت على نفسي من مالي .

[وروي] أنه جاء خراج اليمن ومعه عنبر حمل على اثني عشر بغلاً فأحضر المال بين يديه ثم أمر به إلى بيت المال وأمر بالعنبر ، فلما حضر بين يديه سدّ أنفه وأمر به فأدخل بيت المال فقيل له : إن هذا العنبر لا ينقصه ريحه . فقال : إنما ينتفع منه بريحه . وروي أن ابنة لعمر بن عبد العزيز بعثت إليه بلؤلؤة ، وقالت : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن يبعث لي أختها حتى أجعلها في أذني فافعل . قال : فأرسل إليها بجمرتين ، ثم قال : إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت بأخت اللؤلؤة إليك . وعن عيسى بن سنان رحمه الله قال : كان عمر ابن عبد العزيز لا يبني بناء ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذلك سنة رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يضع لبنة ولا قصبة على قصبة . وعن أبي داود الرومي رحمه الله قال : كان لعمر بن عبد العزيز درجة يصعد عليها ، وكانت تتحرك كلما نزل أو طلع يرتاع منها فعمد بعض أصحابه فشدها بطين ، فلما صعد عمر رآها قد تثبتت ، فسأل عنها ؟ فقيل : إن فلاناً بناها ، فقال : أعيدوها إلى ما كانت عليه فإني عاهدت الله تعالى من وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة . اسمع يا من أفنى في عمارة الدنيا عمره ، وقلل نفعه فيها وكثر ضرره كان السلف يخربون الدنيا فيعمرون بها الآخرة ، وأنتم قد عكستم ، عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة :

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وفعله غير فعل الخير خسران

يا عامراً لِخَرَابِ الدار مجتهداً ... تالله ما لخراب العمر عمران

فيا مستأنساً بالمنازل والدور ، وكاسات الموت عليه تدور ، يا مظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور . لو ذكرت الأجداث والقبور ، لأبطلت عمارة الدنيا أيها المغرور ، ستحاسب على الأيام والشهور ، يا من يصلي بلا حضور ، ويصوم والصوم بالغيبة مغمور كم يتلطف بك وأنت نفور ، كم ينعم عليك يا كفور ، كم تبارز بالمعاصي وأنت مستور ويمهلك لتتوب إليه إنه رحيم غفور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :

إلى متى تلهو بدار الغرور ... وفي تمادي الغيّ تفني الدهور

ناسياً للموت يا غافلاً ... عليه كاسات المنايا تدور

حادي السرى ناداك مستعجلاً ... وما تزودت ليوم النشور

فانهض وتب من كل ذنب مضى ... تحظى برضوان العزيز الغفور

[وعن الأوزاعي رحمة الله عليه] قال : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل وكان في غالب أوقاته يغمس الخبز بالدقة ويأكله . وأهدي إليه طبق فيه تفاح وفاكهة فردّه ولم يأكل منه شيئاً ، فقيل له : ألم يكن رسول الله يقبل الهدية ؟ قال : بلى ولكن الهدية إلى رسول الله ﷺ هدية وهي لنا ولمن بعدنا رشوة ، وكان رحمه الله يمنع نفسه الشهوات ويسمح بالعطايا

للناس ، قال خزيمة أبو محمد العابد : إن عمر بن عبد العزيز قال : ما أعطيت أحداً مالاً واستقللته له ، وإني لأستحي من الله أن أسأله الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا . وعن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله تعالى قال : ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سنتين ونصفاً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم . فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء فيقوم وماله معه لما أغنى عمر الناس بعطائه ، وعن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوماً : روّحِيني حتى أنام فروحّته فنام فغلبها النوم فنامت فلما انتبه أخذ المروحة يروّحها فلما انتبهت ورأته يروحّها صاحت فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني فأحببت أن أروّحك كما روّحتِني . فللّه درّهم جعلوا التواضع لهم شعاراً . والتقوى دثاراً وجانبوا من الدنيا لهواً واغتراراً وتزينت لهم فرفضوها لما رأوها ثوباً معاراً كم كفت كفاً . وكم أعمت أبصاراً ، وكم بالخوف راعت راعيها وما راعته ليلاً ولا نهاراً ، فارحل بعزمك عنها واتخذ غيرها داراً ، واحذر لباس بأسها فكم كست لابسها عاراً :

يامحب الدنيا الغرور اغترارا	راكباً في طلابها الأخطارا	يبتغي وصلها فتأبى عليه
وترى أنسه فتبدي نفارا	خاب من يبتغي الوصول إليها	جارة لم تزل تسيء الجارا
كم محب أرته أنساً فلما	طلب الوصول أبعدته مرارا	فتعوّض عنها بخلة صدق
والتمس غير هذه الدار دارا	فالبدار البدار بالعمل الصا	لح ما دمت تستطيع البدارا

[وعن هلال بن قيس رحمه الله] قال : مرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذي مات فيه أول شهر رجب سنة إحدى ومائة وكانت شكواه عشرين يوماً . وعن الوليد بن هشام رحمه الله قال : لقيني يهودي وكان قد أخبرني قبل ولاية عمر أن عمر سيلي هذا الأمر ويعدل فيه ، قال : فلقيت عمر فأخبرته فلما توليَ عمر لقيني اليهودي بعد مدّة ، فقال لي : ألم أخبرك أن عمر سيلي الخلافة وكان الأمر كما أخبرتك ؟ فقلت : بلى ، فقال لي : الآن هذا الرجل قد سُقيَ السمّ فمره فليتداو ويدرك نفسه قال : فلقيته فذكرت له ذلك فقال عمر : والله إني عرفت الساعة التي سقيت فيها السمّ ولو كان شفائي في مسّ شحمة أذني لما مسستها أو لو كانت عافية بطيب أرفعه إليّ ما رفعته . وعن مجاهد قال : سألني عمر بن عبد العزيز في مرضه : ما تقول الناس فيّ ؟ قال : يقولون إنه مسحور فقال : ما أنا بمسحور ولكن سقيت السم ثم استدعى بغلام فقال : ما حملك على أن سقيتني السم ؟ قال " أعطيت ألف دينار ووعدت بالعتق فقال : هات الألف دينار فجاء بها فألقاها في بيت مال المسلمين وقال للغلام : اذهب حيث شئت فأنت حر ؟ وعن أبي حازم رحمة الله عليه قال : شاهدت عمر بن عبد العزيز وقد رقد رقدة على أثر وجد وجده فبكى ثم ضحك فلما انتبه قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ما الذي اعتراك في

منامك حتى ضحكت بعد البكاء ؟ قال : رأيت ذلك ؟ قلت : نعم وجميع من حولك قال : رأيت كأن القيامة قد قامت وقد حشر الناس مائة و عشرين صفاً أمة محمد ﷺ منهم ثمانون صفاً وإذا مناد ينادي : أين عبد الله ابن أبي قحافة فأجاب فأخذته الملائكة فأوقفوه أمام ربه عز وجل فحوسب حساباً يسيراً ثم نجا وأمر به إلى ذات اليمين . ثم جيء بعمر بن الخطاب فحوسب حساباً يسيراً ثم نجا ثم أمر به وبصاحبه إلى الجنة. ثم جيء بعثمان فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . ثم نودي بعلي بن أبي طالب فجيء به فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . قال عمر بن عبد العزيز :فلما قرب مني نودي : أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال : فتصببتُ عرقاً ثم أخذتني الملائكة فأوقفوني أمام الحق سبحانه وتعالى فسألني عن النقير والقطمير وعن كل قضية قضيتها ثم غفر لي فأمر بي ذات اليمين فمررت بجيفة ملقاة فقلت للملائكة : ما هذه الجيفة فقالوا : سله يجبك فسألته ووكزته برجلي فرفع رأسه وفتح عينيه فقلت له : من أنت ؟ فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنا عمر بن عبد العزيز فقال لي : ما فعل الله بك ؟ فقلت : تفضل عليّ ورحمني وفعل بي كما فعل بمن سلف من الأئمة ، فقال : ليهنك ما صرت إليه فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا الحجاج بن يوسف الثقفي قدمت على الله عز وجل فوجدته شديد العقاب والغضب فقتلني بكل قتيل قتلته وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة وها أنا بين يدي ربي أنتظر ما ينتظره الموحدون من ربهم : إما إلى الجنة و إما إلى النار . قال أبو حازم : فعاهدت الله تعالى بعدما سمعت هذا من عمر ﷺ أني لا أقطع لأحد بالنار ممن يقول : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، فالويل لأهل الظلم من الأوزار ، ذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار داروا إلى دار العقاب وملك غيرهم الدار وخلوا بالعذاب في بطون تلك اللحود والأحجار فلا راحة لهم ولا سكون ولا قرار ، دموعهم تجري على التفريط كالأنهار ، شيدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار ، كم قتل الحجاج من قتيل وكم ظلم من جار ، أما علم أن الله ينتقم ممن تعدى وجار ؟ فإذا قاموا في القيامة حشروا في جهنم مع الفجار ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ : [إبراهيم : ٥٠] .

ويحك يا نفس البدار البدار ما هذه الدنيا لحي بدار منزلة والناس سفروكم
خانهمو صرف الليالي وجار قد نفد العمر وقل البقا إلى متى يا نفس ذا الاغترار

من كان في الدنيا يرى راحلاً كيف له فيها يقر القرار
أم كيف يهنأ العيش فيها لمن عليه كاسات المنايا تدار
يا أيها النائم قم وانتبه قد فاتك المطلوب والركب سار
إن كنت أذنبت فقم واعتذر إلى كريم يقبل الاعتذار

وانهـض إلى مـولى عظـيم الرجـا يغفـر في الليـل ذنـوب النـهار

[قيل] : إن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين من توصي بأهلك ؟ فقال : إذا نسيت الله فذكروني ، ثم عاد وقال له : من توصي بأهلك ؟ فقال : إن وليي فيهم الله وهو يتولى الصالحين . وعن رجاء بن حيوة قال : قال لي عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه يا رجاء : كن أنت فيمن يغسلني ويكفنني ويلحدني في قبري فإذا وضعوني في لحدي فحل العقدة وانظر إلى وجهي فإني قد دفنت ثلاثة من الخلفاء كلهم إذا وضعته في لحده حللت العقدة . ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو مسودّ محولّ إلى غير القبلة . قال رجاء : فلما مات عمر بن عبد العزيز ﷺ كنت ممن غسله وكفنه ودفه فلما ألحدته حللت العقدة ونظرت إلى وجهه فإذا هو يضيء كالقمر المنير متوجهاً إلى القبلة ففرحت له بذلك . وعن عبيدة بن حسان ، قال : لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : اخرجوا عني فلا يبقينّ عندي أحد وكان عنده مسلمة بن عبد الملك فخرجا وقعد مسلمة بن عبد الملك وفاطمة أخته زوجة عمر على الباب فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه ليست بوجوه انس ولا بوجوه جن ، قال : وسمعنا صوتاً من ناحية البيت يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : [القصص : ٨٣] قال : ثم دخلوا عليه ، وقد مات رحمه الله ، وقد استقبل القبلة وغمض عينيه وطبق فاه . وعن الأوزاعي قال : قال عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر به عن المؤمن . وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ثقل مرضه قال لمسلمة بن عبد الملك : خذ من مالي دينارين فاشتر لي بهما كفناً فقال : يا أمير المؤمنين إن الدينارين لا يحصل بهما كفن لمثلك ، فقال : يا مسلمة إن كان الله عني راضياً فسيبدلني بما هو خير منه ، وإن كان ساخطاً فإنما يكون حطباً للنار . وروي أنه كفن في ثياب سحولية ، وقيل : في يمنية ، وكان قبره بدير سمعان من أرض حمص ، وكان قد أرسل إلى صاحب الأرض يساومه على موضع قبره ، فقال له : يا أمير المؤمنين والله إنني لأتبرك بقبرك ، وقد حاللتك منه فأبى أن يقبله إلا بثمنه ، وفي رواية : أنه بايعهم يعني أصحاب الأرض على موضع قبره بدينارين . وقال لهم : إنما أريد بطن الأرض فإذا دفنت فاحرثوا أرضكم وازرعوا فيها وابنوا وانتفعوا بها فلا يضرني ذلك . وروي أن ولاية عمر كانت ثلاثين شهراً إلا عشرة أيام . وتوفي وهو ابن خمس وأربعين سنة . وعن خالد الربعي قال مكتوب في التوراة : إن السماء والأرض لتبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً . [وروي] أن رسول عمر بن عبد العزيز كان إذا وصل البصرة تلقاه الناس بالرحب

والسعة فإنه كان لا يأتي إلا بزيادة عطاء وإنفاذ مال يتفقد به أحوال الفقراء ، فلما وصل الرسول بموته خرج الناس إليه على جري عادتهم فلما أخبرهم بموته ضج الناس بالبكاء والعويل وغم ذلك أهل البصرة بأسرهم لعظم مصيبتهم به [وقيل] : إن بعض الجن رثاه فقال :

عنا جزاك مليك الناس صالحة ... في جنة الخلد والفردوس يا عمر
أنت الذي لا نرى عدلاً نسرّ به ... من بعده ما جرى شمس ولا قمر

ولما مات عمر بن عبد العزيز رثاه جرير فقال :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا ... مفضلاً حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاستطعت له ... وسرت فيه بأمر الله مؤتمرا

[وقال مسلمة بن عبد الملك] : رأيت عمر بن عبد العزيز بعد موته في المنام ، فقلت له إلى أيّ الحالات صرت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا مسلمة هذا أوان فراغي والله ما استرحت إلى الآن فقلت : يا أمير المؤمنين فأين أنت . فقال : أنا مع أئمة الهدى في جنات عدن وكان عمر ابن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلي فيها ما يسر الله عزّ وجل فإذا كان وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرّغ خدّه على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان في بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسماء مكتوب فيها هذه براءة من النار من الملك العزيز لعبده عمر بن عبد العزيز . وقال الفرزدق لما مات عمر ﷺ يرثيه :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة حق قد بعثت لها ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... على الحبيب الذي يسقى به المطر
ثلاثة ما رأت عيني لهم شبهاً ... تضم أعظمهم في المسجد الحفر
وأنت تتبعهم إذ كنت مجتهداً ... للحق والأمر بالمعروف تبتدر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر
صرفت عن عمر المرضي مصرعه ... بدير سمعان لكن يغلب القدر
فالله يكرم مثواه ويرحمه ... ما أوجب الحج بل ما سنت العمر
وفي مصاب رسول الله تسلية ... فيمن يموت وفي أبنائه عبر
هو الرسول الذي منّ الإله به ... على البرية وازدادت به السير
وخير من ولدت عدنان قاطبة ... وخير من شرفت من أجله مضر
المصطفى المرتضى للخلق ينقذهم ... من الضلال الذي في طيه الخطر

أعطاه مولاه ما لم يعطه أحداً خزائن الغيب منها الخير ينتظر
هو الحبيب الذي أسرى به عجلاً إلى السماء وجنح الليل معتكر
صلى عليه إلّه العرش ما طلعت شمس وما خلفتها الأنجم الزهر

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثامن والثلاثون

في مناقب الإمام الشافعي ﷺ

الحمد لله الذي رفع العلماء إلى أشرف المناصب وأعلى وأسمى ، وخفض لهم المناصب حين نصبهم لفهم أسرار صفات ذاته والأسماء ، وعطفهم على حال المعرفة ونظم درّ عقولهم في سلك التمييز بالتّأكيد نظماً ، نشر في الأقاليم أعلامهم وأجرى بالحكم أقلامهم فكل بمذهبه يرقم سطر الطروس رقماً ، فنعمان النعمة ملكهم علماً وفهماً ، وفاضلهم مالك وطأ لهم الحديث ورسم نصيبه الأحكام رسماً ، وشافعي سائلهم وفر لهم من العلم نصيباً وقسماً ، وأحمدهم لسيدهم مسنداً إليه فلا يخشى لديه هماً ، وكلهم طامع من المولى ببلوغ سؤله متأدب بما قال تعالى في تنزيله لرسوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ : [طه : ١١٤] .

إذا ما شئت أن تسمو وتسمى وتدرك راحة روحاً وجسما
فقم لطريق أهل العلم سعياً لتقفو معهم أثراً ورسما
فإن حصلت لك الدنيا وإلا ظفرت بأكبر الشرفين قسما
فأكرم ما حواه المرء علم به يُهدى ويهدي من ألما
وليس يفيد ملك الكون عبداً إلى العلياء يسري وهو أعمى
فكم أبدى ضياء العمر رشداً وأذهب ظلمة وأزال ظلما
فنحمد ربنا إذ منّ لطفاً به في رشدنا وأزال غما

أحمده حمداً أنال به من الإخلاص حظاً وقسماً ، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أمحو بها ذنباً وإثماً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أذهب الله بشريعته عن القلوب هماً ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين أطلع الله لهم في سماء الفضل والشرف نجماً .

قال أصحاب التاريخ : ولد الإمام الشافعي ﷺ بغزة من بلاد فلسطين ومات عنه أبوه وهو ابن

سنتين ، فحملته أمه إلى مكة شرفها الله تعالى ، فنشأ وترعرع بها وجالس أهل العلم وفتح الله عليه من العلم ما لم يفتح على غيره حتى كان مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة يحثه على الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة . وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، ويتصل نسبه إلى عبد مناف ، وعنده يلتقي بالنبي ﷺ ، وسافر إلى بغداد فأقام بها سنتين ، ثم عاد إلى مكة فأقام بها أشهراً ، ثم خرج إلى مصر ومات بها ﷺ ، وكان يقسم الليل إلى ثلاثة أقسام : ثلث للعلم وثلث للصلاة وثلث للنوم . وقال الربيع رحمه الله : كان الإمام الشافعي رحمة الله عليه يختم القرآن في كل يوم مرة ، وقال الربيع أيضاً : كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وقال الحسن الكرابيسي : بتّ مع الإمام الشافعي ﷺ غير مرة فرأيته يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة ، وكان لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى الإنابة لنفسه وللمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكان الشافعي ﷺ يقول : ما شبعت منذ ستة عشر سنة لأنه يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . وكان الشافعي ﷺ يقول : ما حلفت بالله في عمري لا كاذباً ولا صادقاً وسئل ﷺ عن مسألة فسكت ، فقيل له : لما لا تجيب ؟ فقال : حتى أعلم الفضل في سكوتي أو في جوابي . وقال المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جاء الشافعي إلى مالك رضي الله عنهما ، فقال له : أريد أن أسمع منك الموطأ ، فقال مالك : امض إلى حبيب كاتبي فإنه يقول قرأته فقال له الشافعي : تسمع مني رضي الله عنك صفحاً ، فإن استحسنت قراءتي قرأته عليك وإلا تركتك ، فقال له : اقرأ فقرأ صفحاً ثم وقف ، فقال له مالك : هيه فقرأ صفحاً ثم سكت ، فقال له الإمام هيه فقرأه فاستحسن مالك قراءته فقرأ عليه الموطأ أجمع ثم أتاه بعد ذلك ، فقال له مالك : اطلب من يقرأ لك ، فقال له الشافعي : أحب أن تسمع قراءتي فإن خفت عليك وإلا طلبت من يقرأ لي ، فقال : اقرأ فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، ثم قال : اقرأ فقرأت عليه من الموطأ من أوله إلى آخره حفظاً فدعا لي وسرّ بذلك . قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : حملت على محمد بن الحسن حمل جمل بختي ليس عليه إلا سماعي منه . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : قال الشافعي :لم يكن لي مال وكنت أطلب العلم في الصغر فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها .

[**إخواني**] بهذا الاجتهاد بلغوا المراد ، وبهذا الطلب حصل لهم التوفيق والسداد ، وبهذه الهمة صاروا قدوة للعباد ، يا هذا الهمم العلية تدني إلى المراتب السنية ، وكل من تعب استراح ويحك يا مضيعاً عمره في البطالة ، وقد فاز غيره بنجح المطالب ، يا مهملاً نظره في العواقب ،

احذر فوات الفضائل والمناقب ، أما كان فيما مضى من عمرك من اللعب ما كفاك ، ولا فيما رأيت من تغيير أحوالك ما وعظك ونهاك ؟ ذهب العمر في كسب ما يضر ، وأتيت إلى الآخرة بما لا يسر :

ما زلت في ضر تكابده حتى قطعت العمر خسرانا وأتيت بالأوزار تحملها
لا كان ما قد كان لا كانا وركبت آثاماً أسرت بها ورأيت في عقباك أحزانا
فعسى الكريم يتم نعمته ويعيد ذاك السوء إحسانا

وكان الشافعي رحمه الله يقول : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وأما زهده ﷺ في الدنيا وسخاؤه فروى الحميدي أن الشافعي ﷺ خرج إلى اليمن في بعض أشغاله ثم انصرف إلى مكة ومعه عشرة آلاف درهم فضرب خيمته خارج مكة فكان الناس يأتونه فما برح من مكانه حتى فرقها جميعها ، وخرج يوماً من الحمام وقد أتى بمال كثير فدفعه للحمامي ، وسقط سوطه من يده وهو راكب فرفعه إليه إنسان فأعطاه خمسين ديناراً . وروي عنه أنه خاط قميصاً عند بعض الخياطين ممن جهل قدره فهزأ به الخياط وجعل له الكم اليمين ضيقاً لا تخرج منه يده إلا بجهد والكمّ الآخر كأنه رأس عدل ، فلما جاء الشافعي رأى كماً ضيقاً جداً والآخر متسعاً جداً . فقال : جزاك الله خيراً هذا الكم الضيق جيد لتشمير الوضوء وهذا الكم الواسع لأجل الكتاب ، وكان رسول الملك قد جاء إلى الشافعي بعشرة آلاف درهم فصادفه عند الخياط فقال له : ادفعها إليه حق خياطته هذا الثوب وفكرته في تفصيله ، فسأل عنه الخياط فقيل له : هذا الإمام الشافعي فتبعه وقبل أقدامه واعتذر إليه ثم خدمه وصار من أصحابه ، وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي كم أصدقتها ؟ فقلت : ثلاثين ديناراً ؟ قال : كم أعطيتها ؟ قلت : ستة دنانير ، فأرسل إليّ بصرة فيها أربعة وعشرون ديناراً ، وجعل لي معلوماً على الأذان بالجامع سنة إحدى ومائتين . وقال الشافعي رحمه الله : أظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخفّ بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل ، وقرأ بعضهم عنده يوماً قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ : [المرسلات : ٣٥ ـ ٣٦] فتغير لونه واقشعرّ جلده واضطربت مفاصله وخرّ مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين : اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لهيبتك نفوس المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عني في تقصيري بكرمك . يا هذا إذا كان هذا خوف الشافعيّ مع علمه فكيف أمنك مع جهلك ؟ ويح الجاهلين الغافلين ، أعمارهم تنهب وأيامهم تذهب وأثامهم تكتب ، أصمّ عن النصائح أم عمي والأمر واضح ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ : [النساء : ٨٧] أهل القلوب

القاسية يخرجون من مجالس الذكر كما دخلوا ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : ١٠] المواعظ تحوم حول القلوب ولا تجد طريقاً إليها ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ : [البقرة : ٧] ومع هذا فلا يقطع الرجاء فإن الخمر ينقلب خلا في ليلة واحدة ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾ : [النور : ٤٤] خرج عمر بن الخطاب ﷺ قبل الإسلام وهو أقسى قلباً من الصفا ، فأسلم ولان عند الصفا :

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

ويحك إن اغتالك الظلام فاقتد بعلماء الإسلام . قال عبد الله بن محمد البكري : كنت مع الإمام الشافعي ﷺ بشط بغداد فرأى شاباً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فقال له : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ثم مضى ، فأسرع الشاب في وضوئه ثم لحق الإمام الشافعي ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال له هل من حاجة ؟ قال : نعم تعلمني مما علمك الله ، فقال له : أعلم أن من عرف الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله غداً ، أفلا أزيدك ؟ قال : نعم ، قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمر به ، ونهى عن المنكر وانتهى عنه ، وحافظ على حدود الله تعالى . قال : أفلا أزيدك ؟ قال : بلى قال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنجح مع الناجحين ثم مضى ، فسأل عنه الشاب بعد ذلك فقيل له : هذا الإمام الشافعي ﷺ، وكان يقول ﷺ : وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء ، وقال أيضاً ﷺ : ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يظهر الحق على يديه ولا أبالي أن يبين الله عز وجل الحق على لساني أو على لسانه . وقال أيضاً : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت مودته ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته ، وقال أحمد بن حنبل ﷺ : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي . وقال له ابنه : يا أبت أيّ رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الإمام أحمد : يا بنيّ كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس ، فانظر يا بنيّ هل من هذين خلف ؟ هكذا العلماء الصالحون هم كالشمس للدنيا والعافية للناس ، وليس منهما خلف ، فإن بهم يدفع الله البلاء وينزل الرخاء وتعمّ البركة وتنشر الرحمة ، فلله درّهم فروا من الدنيا إلى الله وأنتم تفرون من الله إلى الدنيا . كان السلف يسخرون من الشيطان وأنتم يسخر بكم ، كم بينكم وبينهم في المقدار ، ملكتكم الدنيا

وملكوها فأنتم عبيد لها والقوم أحرار ، كانت لهم أنفة فما احتملوا العار وعرفوا قدر الزمان فانتهبوا الأعمار ، لو اطلعتم عليهم في وقت الأسحار لرأيتموهم نجوم الهدى ، لا بل هم الأقمار ، قاموا في الدجى على قدم الاعتذار ، وأنتم في بحر النوم والغفلة في التيار :

طـــال والله بالـــذنوب اشـــتغالي وتماديـــت في قبـــيح الفعـــال
ليـــت شـــعري إذا أتيـــت فريـــداً والمـــوازين قـــد نصـــبن حـــوالي
والـــدواوين قـــد نشـــرن جميعـــاً ثم لم يغـــنني هنالـــك مـــالي
مـــا احتيـــالي ومـــا أقـــول لـــربي في ســـؤالي ومـــا يكـــون مقـــالي

[كان] الشافعي ﷺ كثير الزهد في الدنيا عفيفاً عن اللغو والكلام الفاحش . ومرّ يوماً برجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي ﷺ إليه ، فقال : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في وعائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لشقي رادّها كما يشقى قائلها . وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي عن مسائل في الورع والشافعي يقبل عليه لورعه ، فقال للشافعي : أيما أفضل : الصبر أو المحنة أو التمكن ؟ فقال الشافعي ﷺ : التمكن درجة الأنبياء ولا يكون التمكن إلا بعد المحبة فإذا امتحن وصبر مكن ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه وامتحن سليمان عليه السلام ثم آتاه ملكاً عظيماً ، والتمكن أفضل الدرجات .

[وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني] : كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعي فرأيت أحمد يعظمه ، فقال : بلغني أو قال : يروى عن النبي ﷺ : « أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها » فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى .

[وقال هرون بن سعيد بن الهيثم الأيلي] : ما رأيت مثل الشافعي قط ، ولقد قدم علينا مصر فقالوا : قدم رجل من قريش فقيه فجئناه وهو يصلي فما رأينا أحسن منه وجهاً ولا أحسن صلاة فافتتنا ، فلما قضى صلاته تكلم فما رأينا أحسن منطقاً منه ، وكان يتكلم في الحقيقة أيضاً وفي الزهد وفي أسرار القلوب ، وكان يقول : كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة ؟ وكيف يخلص من الدنيا من لا يخلو من الطمع الكاذب ؟ وكيف يسلم من لا يسلم الناس من لسانه ويده ؟ وكيف ينال الحكمة من لا يريد بقوله وجه الله عز وجل ؟ وسأله بعض الناس عن الرياء ، فقال له : أنت إذا خفت على نفسك العجب فانظر رضا من تطلب ،

وفي أي نعيم ترغب ، ومن أي عقاب ترهب ، وأيّ عافية تشكر ، وأيّ بلاء تذكر ؟ وله ﷺ :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرضا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فللّه درّ العارف الندب إنه ... تسح لفرط الوجد أجفانه دما
يقيم إذا ما الليل مد ظلامه ... على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربه ... وفيما سواه في الورى كان معجما
ويذكر أياماً مضت من شبابه ... وما كان فيها بالجهالة أحرما
فصار قرين الهمّ طول نهاره ... ويخدم مولاه إذا الليل أظلما
يقول حبيبي أنت سؤلي وبغيتي ... كفى بك للراحلين سؤلا ومغنما
ألست الذي غذيتني وكفلتني ... وما زلت منانا عليّ ومنعما
عسى من له الإحسان يغفر زلتي ... ويستر أوزاري وما قد تقدما

وله أيضاً ﷺ نظم كثير يحتوي على الحكمة والمواعظ ، وسنذكر منها ما وصل إلينا وصح عنه ﷺ ، وله أيضا كلام في الحقيقة ومعان دقيقة . فمن ذلك ما رواه سويد بن سعيد رحمه الله ، قال : كان الشافعي جالساً بعد صلاة الصبح في مدينة النبي ﷺ إذا دخل عليه رجل ، فقال له : إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربي وليس لي عمل غير التوحيد ، فقال الإمام الشافعي ﷺ : يا مؤمن لو أراد الله عز وجل أن يؤيسك من المسامحة لديه لما أحالك في مغفرة الذنوب عليه ، حيث يقول : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ : [آل عمران : ١٣٥] . ولو أراد عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك ، ثم أنشد :

إن كنت تغدو في الذنوب جليدا ... وتخالف في يوم المعاد وعيدا
فلقد أتاك من المهيمن عفوه ... وأتاح من نعم عليك مزيدا
لا تيأسنْ من لطف ربك في الحشا ... في بطن أمك مضغة ووليدا
لو شاء أن تصلى جهنم خالداً ... ما كان ألهم قلبك التوحيدا

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه ﷺ ، وله شعر كثير وأدعية ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مروان ، قال : كنت أجلس في حلقة العلم عند الإمام الشافعي ﷺ وأكتب ما أفهمه منه فأتيته سحراً فوجدته في المسجد وهو قائم يصلي فجلست حتى فرغ من صلاته ثم دعا بدعوات حفظتها منه فكان من جملة ذلك : اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقرّبنا إليك مقروناً بعوافي الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين . قال : فلما

فرغ من دعائه خرج من المسجد وخرجت خلفه فوقف ينظر إلى السماء ثم أنشد :

بموقف ذلي دوّن عزتك العظمى ... بمخفيّ سر لا أحيط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلتي ... بمد يدي أستمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها ... لعزتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم ... بمن كان مجهولاً فعلمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى ... محباً شراباً لا يضام ولا يظما

[ومن جملة مناقبه ﷺ] قال الربيع رحمه الله : سمعت الشافعيّ ﷺ يقول : رأيت وأنا باليمن كأني جالس في قضاء الطواف إذ أقبل علي بن أبي طالب ﷺ فقمت إليه مسرعاً وسلمت عليه فصافحته فعانقني ونزع خاتمه من أصبعه فجعله في أصبعي ، فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر ، فقال لي : أبشر يا أبا عبد الله ؛ أما رؤيتك لعليّ بن أبي طالب في المسجد الحرام فهو النجاة من النار ، وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب ، وأما جعله الخاتم في أصبعك فسيبلغ اسمك في الدنيا ما بلغ اسم علي بن أبي طالب ﷺ . ومن جملة دعائه ﷺ : اللهم إني أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلا طارقاً يطرق بخير . اللهم أنت عياذي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ، أعوذ بجلالك وكرمك ، من خزيك وكشف سترك ، ونسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا في كنفك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري ، ذكرك شعاري وثناؤك دثاري ، لا إلّه إلا أنت تنزيهاً لاسمك ، وتكريماً لسبحات وجهك ، أجرني من خزيك ، ومن شر عبادك وقني سيئات مكرك ، واضرب عليّ سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظ عنايتك ، يا أرحم الراحمين .

[إخواني] ذهب الصالحون والعلماء والمجتهدون ولم تذهب آثارهم ، ومحيت رسومهم ولم تمح محاسنهم وأخبارهم . كان الإمام أحمد بن حنبل يعظم الإمام الشافعي ﷺ ويذكره كثيراً ويثني عليه ، وكانت له ابنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار ، وتحب أخبار الصالحين الأخيار ، وتودّ أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له فاتفق مبيت الإمام الشافعي عند أحمد رضي الله عنهما في وقت ففرحت البنت بذلك طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقاله ، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره والإمام الشافعي ﷺ مستلق على ظهره والبنت ترقبه إلى الفجر فقالت لأبيها : رأيتك أنت تعظم الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة لا صلاة ولا ذكراً ولا ورداً ، فبينما هم في الحديث إذ قام الشافعي فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ولا أبرك ولا أربح . فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأني رتبت في هذه الليلة مائة

مسألة وأنا مستلق على ظهري كلها في منافع المسلمين ثم ودّعه ومضى ، فقال أحمد بن حنبل لابنته هذا الذي عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم . يا هذا كانت حركاتهم وسكناتهم لله ، وأفعالهم وأقوالهم لله، وذكرهم وفكرهم في الله ، فقيامهم طاعة ، ونومهم صدقة وذكرهم تسبيح ، وسكوتهم فكر ، وعلمهم شفاء ورحمة للأمة ، لا جَرَمَ أن الله تعالى منحهم ومدحهم وجعلهم أئمة الإسلام وقدوة للأنام ، وقيل في المعنى :

قوم إلى الله ساروا بالعلوم على ... نجائب الفكر ركباناً ووحدانا
وفارقوا الأهل والأولاد واغتربوا ... وقد جفوا في طلاب العلم أوطانا
حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة ... وذكرهم عطر الأكوان إعلانا
هم الأئمة لا زالت علومهم ... تبدي لناشقها روحاً وريحانا

[وقيل] : إن الإمام الشافعي ﷺ كان يقطع الليل بوظائف العلوم والأذكار ويجول في روض الحقائق والأسرار ، ويتنزه في حدائق لطائف الأفكار ، فإذا هبت عليه نسمات الأسحار اضطرب كونه وتغير لونه وهاج وجده ولحقه حال لا يدركه إلا أرباب الأحوال فسئل عن ذلك ، فقال : لو تنشقون في السحر ما أنشق لشغلتم عن دنياكم ولمهدتم لأخراكم ، ولسان حاله يقول :

لكم مهجتي والروح والجسم والقلب ... وكلي لكم ملكٌ وإني بكم صبّ
وأنتم أحبائي على كل حالة ... فيا فرحي إن صح لي فيكم الحب
نأيتم فعيني دمعها متواصل ... عليكم وقلبي لا يفارقه الكرب
وكم أتمنى أن أسير إليكم ... فيمنعني حظي وما تنفع الكتب
وأشتاق وادي الرقمتين لأجلكم ... وقلبي إلى وادي قبا والنقا يصبو
متى أنظر الأعلام من نحو أرضكم ... وقد ظهرت تلك المعالم والكتب
ويطربني نوح الحمام على الربى ... وبان الحمى والأثل والمنزل الرحب
متى تجمع الأيام شملي برامة ... وأنظر من أهوى وقد زالت الحجب
وإني لمشتاق إلى قبر أحمد ... نبيّ إليه ترحل العجم والعرب
هو القرشّي الهاشمي الذي له ... مناقب فضل لا تبيد ولا تخبو
ولولاه كان الناس في الغي والعمى ... ولكن هداه قد حبانا به الرب
عليه سلام الله ما لاح بارق ... وما هتفت ورق وما هطلت سحب
وعمّ جميع الآل والصحب كلهم ... سلام ففيهم دائماً وجب الحب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

المجلس التاسع والثلاثون

في مناقب الإمام مالك ﷺ

الحمد لله الذي جعل العلم للعلماء سبباً ، وأغناهم به وإن عدموا مالاً ونسباً ، ولأجله فاز إدريس عليه السلام بالجنة ورفعه الله واجتبى ، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا ، فسار إلى أن لقيا في سفرهما نصباً . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ : [الكهف : ٦٠] وبسببه خلق الله آدم للبشر أباً ، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا له إلا إبليس أبى ، واستخرج من ذريته قبائل وشعباً ، وأجرى عليهم قلم القضاء وجعل لكل شيء سبباً ، وفق أهل العلم بعنايته فقاموا في خدمته رغباً ورهباً ، وفقههم وعرفهم أحكامه فأحرزوا به مزايا ورتباً ، وجعلهم في الدنيا كالأعلام وهداة للأنام فاكتسبوا به مجداً وأدباً ، وقذف في قلوبهم أنواراً يرون بها من المشكلات ما كان بعيداً محتجباً ، وكساهم به عزاً وجلالةً وسمتاً ومهابة فغدا كل منهم مكرماً ومجتبى ، وأذاقهم حلاوة أحكامه فما وجدوا في سفر طلبه تعباً ، فإذا وفدوا إليه في القيامة ألبسهم تيجان الكرامة وناداهم أهلاً وسهلاً ومرحباً :

تقدّم وقدم في الهوى النفس إن ترد ... رضاهم إذا أحببت منهم تقربا
ولا تخش من طعن القنا إن أردتهم ... ورمت تلاقيهم فلا تخف الظبا
هم العلماء المخلصون لربهم ... فخذ واقتبس منهم وكن متأدبا
فإن كنت أنملاً حزت كل فضيلة ... ونلت مقاماً في الأنام ومنصبا
وساعدك الرحمن منه بفضله ... وصار لك الدين الحنيفيّ مذهبا

أحمده حمداً أتخذه للنجاة سبباً ، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعتز بها طرباً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المصطفى والرسول المجتبى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته البررة النجبا ، صلاة وسلاماً دائمين ما هطلت السماء بوبلها وأبدت سحباً .

[روى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتاب الأنساب] أن الإمام مالك بن أنس عامر الأصبحي ﷺ : كان إمام دار الهجرة وفيها ظهر الحق وانتصر ، وقام الدين واشتهر ، ومنها فتحت البلاد ، وتواصلت الأمداد ، وسمي عالم المدينة وانتشر علمه في الأمصار واشتهر في سائر الأقطار ، وضربت له أكباد الإبل وارتحل الناس إليه من كل فج فانتصب لتدريس

العلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، فاحتاج أشياخه إليه وعاش قريباً من تسعين سنة ، ومكث يفتي الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة وشهد له التابعين بالفقه والحديث ، وروى عنه من الأئمة المشهورين والعلماء المذكورين محمد بن شهاب الزهري إمام السنة ، وربيعة بن عبد الرحمن فقيه أهل المدينة ، و يحيى بن سعيد الأنصاري ، وموسى بن عقبة ، وهؤلاء كلهم أشياخه ورووا عنه ، وتأول فيه التابعون وتابعوهم أنه العالم الذي بشر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره وهو قوله ﷺ : « ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة » ، وفي حديث آخر : « ليس على ظهر الدنيا أعلم منه ، فتضرب إليه أكباد الإبل » ، وفي حديث آخر : « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » . قال ابن عُيَيْنَة : كانوا يرونه مالكاً . وقال عبد الرزاق : كنا نرى أن مالكاً لا يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه . قال أبو مصعب : كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم . وقال يحيى بن شعبة : دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد منهم هيبة له ولا يفتي أحد في مسجد رسول الله ﷺ غيره فجلست بين يديه فسألته فحدثني فاستزدته فزادني ثم غمزني أصحابه فسكتُّ . وقال مالك ﷺ : ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني مستحق لذلك . وقال حماد بن زيد لرجل جاءه في مسألة اختلف الناس فيها : يا أخي إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة واصغ إلى قوله فإنه حجة : مالك بن أنس إمام الناس . وقال حماد بن سلمة : لو قيل لي أختر لأمة محمد ﷺ إماماً يأخذون عنه دينهم لرأيت مالكاً لذلك موضعاً وأهلاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة . وقال الليث بن سعد : علم مالك علم تقي ، علم مالك أمان لمن أخذ به من الأنام ، وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول : إنما أقتدي في ديني برجلين مالك وسليمان بن القاسم في ورعه فللّه درّهم نصبوا أنفسهم لنفع الناس فعبقت بأنفاسهم الأكوان واجتهدوا في طلب العلم فوفقهم الرحمن . قال رسول الله ﷺ : « ما سلك عبد طريقاً إلى العلم إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولو أن عابداً مات في الإسلام ما نقص من الإسلام إلا شخصه ، ولو أن عالماً مات لفقده أمة من الناس ، وما نقص عالم من الأرض إلا ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها أحد ما أختلف الليل والنهار ، ألا وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولمداد جرت به أقلام العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء وليودّن رجال قتلوا في سبيل الله أن يبعثهم الله يوم القيامة علماء لما يرون من فضل أهل العلم ، فمن أصاب علماً فقد أصاب خيري الدنيا والآخرة ومن آذاهم فقد بارز الله تعالى بالمحاربة » :

عليك بعلم الفقه في الدين إنه سيرفع فاستدركه قبل صعوده
فمن نال منه غاية بلغ المنى وصار مجداً في بروج صعوده

[وقال محمد بن رمح رحمه الله] : حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم فنمت في مسجد رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر والمنبر فرأيت النبي ﷺ قد خرج من قبره وهو متوكىء على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقمت فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت : يا رسول الله أين أنت ذاهب ؟ فقال : أقيم لمالك الصراط المستقيم فانتبهت فأتيت أنا وأبي فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ ، وكان أوّل خروجه .

[وحدث محمد بن عبد الحكم] قال : سمعت محمد بن أبي السري العسقلاني يقول : رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك . فقال ﷺ : إني قد أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت له : يا رسول الله صلى الله عليك حدثني بعلم أحدّث به عنك فقال: إني أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك فقال ﷺ : يابْنَ السري إني قد أوصيت إلى ابن مالك بن أنس بكنز يفرقه عليكم ألا وهو الموطأ ، ألا وليس بعد كتاب الله ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ فاسمعه تنتفع به . وقال عتيق بن يعقوب الزبيري رحمه الله عليه : قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس فوجه إليه البرمكي ، فقال : أقرئه السلام وقل له يحمل إلي الكتاب فيقرؤه عليّ ، فأتاه البرمكي فقال له : أقرئه السلام وقل له إن العلم يزار ولا يزور وإن العلم يؤتى ولا يأتي فأتاه البرمكي وأخبره . وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال : يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بن أنس في أمر فخالفك اعزم عليه فبينما هم كذلك إذ دخل مالك بن أنس فسلم وجلس ، فقال له الرشيد : يابْنَ أبي عامر أبعث إليك فتخالفني ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجة بن يزيد بن ثابت عن أبيه ، قال : « كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ﷺ فكتبت : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، وكان ابن أم مكتوم عند النبي ﷺ . فقال يا رسول الله إني رجل ضرير ، وقد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما قد علمت ، فقال النبي ﷺ : لا أدري وقلمي رطب ما جف حتى ثقل فخذ النبي ﷺ عليّ ثم أغمي على النبي ﷺ ثم جلس رسول الله ﷺ فقال : يا زيد اكتب غير أولي الضرر » يا أمير المؤمنين حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ألا ينبغي لي أن أعزه وأجله ؟ وأن الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع فلا تكن أنت أوّل من يضع عز العلم فيضع الله عزك . قال : فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه

الموطأ وأجلسه معه على المنصة فلما أراد أن يقرأه على مالك قال لمالك : تقرؤه عليّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما قرأته على أحد منذ زمان . قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه أنا عليك . فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة فأمر أن يقرأه معن بن عيسى القزاز عليه فلما بدأ بالقراءة قال مالك ﷺ لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه . وسئل مالك ﷺ عن طالب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه . وكان رحمه الله في تعظيم علم الدين مبالغاً حتى إذا أراد أن يحدّث توضأ وصلى ركعتين وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن في الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث فقيل له في ذلك . فقال : أحبّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ هكذا يكون تعظيم العلم ، فالعلماء إذا عظموا العلم عظمهم الله عند الناس وجعل لهم الهيبة والوقار في قلوب الملوك ومن دونهم ، فيا أيها الطالب للعلم تواضع له ، فمن تواضع له تواضع الله ، ومن تواضع لله رفعه الله ، فإن التراب لما ذل لأخمص القدمين صار طهوراً للوجه كما قال : ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ : [المائدة : ٦] . يا هذا دم على حضور مجلس العلم فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع . فإذا صار رجلاً صبر على الفطام . واعلم أن طريق الفضائل مشحونة بالبلاء ليرجع عنها محنة العزم :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

فيا أيها الشاب جوهر نفسك بدراسة العلم وحلها بحلية العمل ، فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير أو لذروة منبر :

تعلم فليس المرء يخلق عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

[قيل] : لما اشتهر مالك ﷺ بالعلم وانتشر صيته وذكره في البلاد حملت إليه الأموال لانتشار علمه فكان يفرقها على أصحابه ، وأصحابُه يفرقونها في وجوه الخير موافقة لفعله وما كان يدخرها وكان يقول : ليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . وقال أيضاً : ما كان رجل صادقاً في حديثه لا يكذب إلا متعه الله بعقله ولم تصبه عند الهرم آفة ولا خرف . وقال عمر بن أبي سلمة رحمه الله : ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آت في المنام فقال لي : هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً . وقيل : إن مالكاً ﷺ لما أراد أن يؤلف كتابه بقي

متفكراً في أي شيء يسمي به تأليفه ، قال : فنمت فرأيت النبي ﷺ فقال : وطىء للناس هذا العلم فسمّى كتابه الموطأ . وقال عبد الملك بن المبارك : كنا عند مالك ، وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدغته عقرب ست عشر مرة وهو يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما تفرق الناس عنه قلت له : يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً . قال : نعم صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ . وقال مصعب بن عبد الله رحمه الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له في ذلك ؟ فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم ما ترون . وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو وهو مستعجل ويقول : أحبّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ . وقال الدراوردي رحمه الله : رأيت في المنام أني دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت النبي ﷺ يعظ الناس إذ دخل عليه مالك فلما رآه النبي ﷺ قال : إليّ إليّ فأقبل حتى دنا منه فنزع رسول الله ﷺ خاتمه من أصبعه فوضعه في خنصر مالك ﷺ فأوّلته العلم قد وضعه النبي ﷺ إليه ، وكانت العلماء تقتدي بعلمه ، والأمراء تستضيء برأيه ، والعامة منقادة إلى قوله فكان يأمر فيمتثل أمره بغير سلطان ، ويقول فلا يسأل على دليل قوله ، ويأتي بالجواب فلا يجسر أحد على مراجعته ، ولذلك قال فيه بعض محبيه :

يأتي الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

لبس الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

هذه والله صفات العلماء الذين تبكي على فقدهم الأرض والسماء وترحم بهم العباد ، وتأمن بهم البلاد ؛ فهم العلماء الزهاد أهل الإخلاص والسداد حنت إليهم القلوب ، وانقادت إليهم النفوس ، وذلت لهم الصعاب وخضعت لهم الرؤوس ، فهم في الأقطار كالأقمار والشموس ، لا جرم صار ذكرهم مدوّناً في الطروس . وأما من تصنع بالرياء وعمل لأجل الدنيا وغرته أمانيه ، واشتهى أن يمدح بما ليس فيه فذاك من أهل الأذهان المعكوسة ، والأفكار المنكوسة إذا سمعوا ما لا تدركه فهومهم ، وتقصر عنه علومهم فسدت أصولهم والتبس عليهم محصولهم فعملوا بالمعاصي في صور الطاعات ، وجاؤوا بالسيئات في صفات الحسنات ، فخانوا في العمل ، وخابوا في الأمل ، وليس العجب من عامي بجهله قد اقترف ، وبذنبه قد اعترف ، فهو على هدف : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ : [الأنفال : ٣٨] . وإنما العجب ممن يدعي العلوم ، ولطلب الدنيا يروم ، وهو عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، ومن الأجر محروم ، فهؤلاء اتخذوا دين الله هزواً ولعباً ، وجعلوا المواعظ فرجة وطرباً يسمعون ولا يلقون للقول سمعاً ، ويوعظون فلا يؤثر الوعظ في قلوبهم

صدعاً ، ولا في العيون دمعاً ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ : [الكهف : ١٠٤] . إن سمعوا بدلوا وحرفوا ، وإن وزنوا أو كالوا بخسوا وطففوا ، هذا والله حرام شرعاً ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ إن تواجدوا فبغير عزم ، وإن جادلوا فبغير علم ، وإن سألوا فبغير فهم لا جرم أنهم بسيوف الجهل صرعى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ كان مالك ﷺ كثير الصلاة والأذكار ، والأوراد في الأسحار ، والدروس في العلوم والتكرار ، فجاء مدحه على لسان النبي المختار ، ما مدح مالك بذلك ، حتى سلك إليه أصعب المسالك ، واقتحم في طلبه جميع المهالك ، وأنت أيها الغافل في لجة الجهل بارك ، ولأوامر الربّ تارك :

واحرّ قلبي من العلوم ... من جاهل في الورى ظلوم
لم يدر فيما ادعاه فرقاً ... بين صحيح ولا سقيم
بذلت جهدي وحسن قصدي ... والصفو من قلبي السليم
غواص فكري ببحر سري ... يجتلب الدر للفهيم
واخيبة السعي إن لم يكن لي ... قصد سوى وجهك الكريم
وإن تكن هجرتي لشيء ... سواك يا خيبة القدوم
لله من خلقه خواص ... لهم خصوص من العموم
قد خصهم منه إذ حباهم ... بالفضل من جوده العميم
علومهم بالفهوم تقرا ... لا بسطور ولا رقوم

[وعن الشافعي ﷺ] قال : رأيت على باب مالك دواب من أفراس خراسان جاءته هدية ، وقيل من مصر ، ما رأيت أحسن منها فقلت له : ما أحسن هذه ؟ فقال : هي هدية مني إليك فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أطأ تربة وطأ فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة . وكان يحيى بن سعيد رحمه الله يقول : مالك رحمة لهذه الأمة . وقال أبو قدامة : مالك أحفظ أهل زمانه ، وقال أبو عبد الله المنتاب : حفظ مالك مائة ألف حديث . وقال الليث بن سعد : والله ما على وجه الأرض أحبّ إليّ من مالك . وقال : اللهم زد من عمري في عمره . وكان الأوزاعي معظماً لمالك ، وإذا ذكره يقول : قال عالم العلماء ، قال عالم المدينة . قال مفتي الحرمين . وقال المثنى بن سعيد القصير : سمعت مالكاً يقول : ما بتّ ليلة إلا رأيت النبي ﷺ فيها .

[فأما ذكر وفاته] فقال ابن القاسم رحمة الله عليه : كنا عند مالك في مرضه الذي مات فيه فدخل ابن الدراوردي ، فقال : يا أبا عبد الله رأيت البارحة رؤيا أتسمعها مني ؟ فقال : قل ،

قال : رأيت رجلاً ينزل من السماء عليه ثياب بيض وبيده سجل ينشره ما بين السماء والأرض ثلاث مرات يقول : هذه براءة لمالك من النار فبينا أنا أحدثه إذ دخل عليه رسول الأمير ، فقال : يا أبا عبد الله إن مؤذن مسجد المدينة رأى البارحة رؤيا فسمعتها منه فقصّ عليه مثل ذلك ، فقال مالك : الله المستعان ما شاء الله كان ، وعن أبي زكريا قال : سمعت الشافعي ﷺ يقول : قالت لي عمتي ونحن بمكة رأيت في هذه الليلة رؤيا قلت : وما هي ؟ قالت : رأيت فلاناً يقول : مات الليلة أعلم أهل الأرض فحسبنا ذلك اليوم الذي مات فيه مالك .

[وقال يونس بت عبد الأعلى] : سمعت بشر بن بكر يقول : رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة . فقلت له أين مالك ؟ فقيل : رفع . قلت : بماذا ؟ قال : بصدقه ورأى بعض الصالحين مالكاً بعد موته في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قال : بماذا ؟ قال : بكلمة سمعتها من عثمان أنه كان إذا رأى ميتاً يقول : الله لا إلّه إلا هو الحيّ القيوم ، سبحان الحيّ الذي لا يموت ، فأدمت قولها فأدخلني الله الجنة .

[وقال عبد العزيز] : توفي مالك ﷺ لعشرة أيام خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ومرض يوم الأحد ، ومات يوم الأحد ، وعاش تسعين سنة ، وأوصى أن يكفن في بعض ثيابه ، ويصلى عليه بموضع الجنائز فصلى عليه أكثر الناس ، فمن ذلك ابن عياش وهاشم وابن كنانة ، وشعبة بن داوود وكاتبه حبيب وابنه ، ونزل جماعة في قبره وأنشد أبو عمار الأرجواني في مالك ، وفي موطئه :

لقد بان للناس الهدى غير أنهم ... غدوا بجلابيب الهوى قد تجلببوا
فلو أحدثت في بلدة الصين بدعة ... رأيت إليها السفن في البحر تركب
فمن رام أن ينجو بمهجة نفسه ... فلا يعد ما تحوي من العلم يثرب
أنترك داراً كان بين بيوتها ... يروح ويغدو جبرئيل المقرب
وكان رسول الله فيها وبعده ... بسنته أصحابه قد تأدبوا
وفرق سبل العلم في تابعيهم ... فكل امرىء منهم له فيه مذهب
فخصه بالسبك للناس مالك ... ومنه صحيح في المجلس وأجرب
فأبرى بتصحيح الرواية داءه ... وتصحيحها عنه دواء مجرب
ولم يؤت هذا العلم من غير أهله ... وفي قلة التمييز بالعلم معطب
أيا طالباً العلم إن كنت طالباً ... حقيقة علم الدين محضاً وترغب
فبادر موطأ مالك قبل فوته ... فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده ... فإن الموطا الشمس والعلم كوكب

هـو الحـق عنـد الله بعـد كتابـه ... وفيـه لسـان الصـدق بـالحق معـرب
هو الأصل طـاب الفـرع منـه لطيبـه ... ولم لا يطيب الفـرع والأصـل طيـب
لقـد أعربـت آثـاره بثباتهـا ... فمـا إنْ لهـا في العـالمين مكـذب
ومما بـه أهـل الحجـاز تفـاخروا ... بـأن الموطـأ في العـراق محبـب
وكـل كتـاب بـالعراق مؤلـف ... تـراه بآثـار الموطـأ يعصـب
ومـن لم يكـن هـذا الموطـأ في بيتـه ... فـذاك مـن التوفيـق بيـت مخيـب
ولـو بالموطـأ يعمـل النـاس كلـهم ... لأمسوا وما منـهم على الأرض مـذنب
جـزى الله عنـا في الموطـأ مالكـاً ... بأفضل ما يجـزي اللبيـب المهـذب
فقد جاد بالإحسـان في كـل مـا روى ... كذا فعل من يخشـى الإلـه ويرغـب
لقـد رفـع الـرحمن بـالعلم قـدره ... غلامـاً وكهـلاً ثم إذا هـو أشـيب
لقد فـاق أهـل العلـم شـرقاً ومغربـاً ... فأضحت بـه الأمثـال في النـاس تضـرب
ومـا فـاقهم إلا بتقـوى وخشـية ... وإذ كان يرضـى في الإلـه ويغضـب
فلا زال يسـقي قـبره كـل عـارض ... من العفو إذا يهمـي عليـه ويكسـب
ويسـقي قبـوراً جاورتـه كسـقيه ... فيصـبح فيهـا نبتـها وهـو معشـب
ومـا فيـه بخـل إذ سـقاهم بسـقيه ... ولكـن حـق العلـم أولى وأوجـب

ولما بلغ أهل العراق موت مالك ارتجت له العراق وعظمت مصيبتهم بموتـه ، وقـال رجـل لسفيان بن عيينة : يا أبا محمد رجل أراد أن يسأل عن مسألة رجلاً مـن أهـل العلـم يكـون لـه حجة بينه وبين الله تعالى . فقال : مالك ممن يجعله الرجل حجة بينه وبين الله تعالى ، فقيل له : قد مضى مالك ؟ فقال : هيهات ذهب الناس .

[وأما زهده في الدنيا] فقد كان زاهـداً فيهـا راغبـاً في الآخـرة مجتهـداً في العلـم ونصـيحته للمؤمنين . وسأله المهدي أمير المؤمنين ، وقال له : هل لك دار ؟ فقال : لا ولكن أحدّثك : سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسـأله الرشـيد : هـل لـك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال له : اشتر لك بهـا داراً فأخـذها ولم ينفقهـا ، فلمـا أراد الرشيد الرحيل إلى بغداد ، قال له : ينبغي لك أن تخرج معنا فإني عزمـت علـى أن أحمـل الناس على الموطأ كما حمل عثمان ﷺ الناس على القرآن فقال له : أما حمل الناس على الموطـأ فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب النبيّ ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كـل أهـل مصر علم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اختلاف أمتي رحمة » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ، وقال : « المدينة تنفـي خبثهـا كمـا

ينفي الكير خبث الحديد » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما كلفتني مفارقة المدينة بما اصطنعته لدي من أخذ هذه الدنانير فالآن خذها فإني لا أؤثر الدنيا وما فيها على مدينة النبي ﷺ .

[وقال بعض الصالحين] : رأيت في النوم أني دخلت الجنة فرأيت في وسطها عموداً من نور ورأيت أربعة يجرّونه بأربعة سلاسل من جهاته الأربع وهو ثابت لا يتغير من مكانه فقلت : يا الله العجب لو جرّه هؤلاء من جهة واحدة لكان أسهل عليهم فسألت بعض الملائكة عن ذلك ، فقال لي : هذا العمود هو دين الإسلام وهذه الأربع سلاسل المذاهب الأربعة وهؤلاء الذين يجرونه هم أئمة الإسلام الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ومالك رضي الله عنهم أجمعين فاتفاقهم فرض ، وقولهم حق واختلافهم رحمة للمسلمين :

هم الفقهاء والعلماء حقاً ... وعنهم في البرايا فارو ذكرا ... وهم أهل التقوى والدين فاعلم
وعنهم فاستمع خبراً وخبرا ... فهم أهل الهداية حيث كانوا ... ومنهم تكتسي الأكوان عطرا
بهم تحمى البلاد ومن عليها ... من أسباب الردى براً وبحرا ... فكل منهمو في الخلق أضحى
لقلب الحائر المسكين جبرا ... إذا وفاهم المضني فيشفى ... وإن مرّ السقيم بهم فيبرا
وإن وافى الفقير إلى حماهم ... تراه بنيل فضل العلم يثرى ... وإن نامت عيون الخلق قاموا
يراعون الدجى سهراً وفكرا ... فهم في الليل في استغراق فكر ... إذا اضطجعوا وما يخشون نكرا
وجدوا في تصانيف إليها ... تشد رحال أهل الأرض طرا ... فذكرهمو يعطر كل أرض
ونشرهمو بطيب المسك أزرى ... فإن وجدوا فللدنيا ابتهاج ... وإن فقدوا أعيد العيش مرا
وكلهمو بدين الله حقاً ... وسنة أحمد المختار أدرى ... أجلّ العالمين رسول صدق
به الرحمن جنح الليل أسرى ... هو الهادي البشير ومن هدانا ... لدين قد سما شرفا وقدرا

شفاعته لأرباب الخطايا ... رأوها عند رب العرش ذخرا
عليه من المهيمن كل وقت ... صلاة تملأ الأقطار نشرا

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

المجلس الأربعون

في مناقب الإمام أحمد بن حنبل ﷺ

الحمد لله الذي أوضح الطريق إلى معرفته لكل سالك ، توحد بالكبرياء والعظمة والممالك ، إلّه لا وزير له ولا صاحبة ولا مشارك ، صمد ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا فان ولا

هالك ، يعلم ما كان وما يكون وما يخطر ببالك ، بصير يبصر أغذية الجنين من البطون في ظلمة الأحشاء في سواد الليل الحالك ، سميع يسمع دعاء كل داع وما تتحرك به شفتاك من ألفاظك وأقوالك ، مريد لما كان من خير وشر وما يكون بعد ذلك ، استوى على العرش كما قال لا كما يخطر ببالك ، لا بنزول ولا بحركة ولا انتقال ومهما خطر في النفس كان الله بخلاف ذلك ، فهذا اعتقاد البشر وهو الذي اتفق عليه أبو حنيفة وأحمد و الشافعي ومالك ، فقم أيها العاصي ، وتذلل لمالك النواصي ، وأقبل بافتقارك واشك حالك إليه فهو أعلم بحالك ، أحمده على السراء والضراء وأشكره في الشدّة والرخاء ، وأشهد أن لا إلّـه إلا الله وحده لا شريك له ذو العزة والبقاء ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أبي بكر وعمر وعثمان وعلى السادة الأتقياء .

[قال إدريس الحداد] : كان الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ﷺ صاحب رواية في الحديث ليس في زمانه مثله :

وأحمـد المعـروف في كـل مشـهد ... وقـد رفـع الله العظـيم لـه قـدرا
وآتـاه علمـاً في الـورى ومهابـة ... وجاد عليـه بالكرامـة في الأخـرى

وكانت له حالة الصالحين وشعار المؤمنين . قال : وكان له على ولده عبد الله رغيف خبز وشيء من الأدم ، فلما ولي ولده القضاء امتنع عن قبول الرغيف ، وقال : والله لا آكل له طعاماً أبداً . وكان كما قال إلى أن مات ، وقال إدريس الحداد : ما رأيت أحمد قط إلا مصلياً أو يقرأ في المصحف أو كتاب ، ما رأيته في شيء من أمور الدنيا ، قال : وكان إذا اشتد به الأمر بقي اليوم واليومين والثلاث لا يأكل شيئاً فإذا رأى أهله شرب الماء يوهمهم أنه شعبان .

[وقال المروزي] : لما حبس أحمد بن حنبل في سجن الواثق على أن يقول إن القرآن مخلوق جاءه السجان يوماً ، فقال له : يا أبا عبد الله الحديث الذي يروى في الظلمة وأعوانهم صحيح ؟ قال : صحيح ، قال السجان : فإني من أعوان الظلمة . قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أعوان الظلمة الذي يأخذ شعرك ويغسل ثوبك ويصلح طعامك وأما أنت فمن الظلمة . قال إدريس الحداد : لما زالت المحنة وصرف أحمد إلى بيته حمل إليه مال كثير جزيل وهو محتاج إلى أيسره فردّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً فجعل عمه إسحاق يسحب ما رده في ذلك اليوم فكان خمسين ألف دينار ، فقال له أحمد : يا عم أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك . فقال له : قد رددت اليوم كذا وكذا وأنت محتاج إلى حبة . قال : يا عم لو طلبناه لم يأتنا إنما أتانا لما تركناه . وقال علي بن سعيد الرازي : سرنا مع أحمد بن حنبل يوماً إلى باب المتوكل ، فلما أدخلوه من باب الخاصة . قال لنا أحمد : انصرفوا عافاكم الله فما مرض منا أحد بعد ذلك

اليوم ببركة دعائه . وقال هلال بن العلاء : أربعة لهم على الإسلام منة أحمد بن حنبل حيث ثبت على المحنة ولم يقل بخلق القرآن ، وأبو عبد الله الشافعي حيث بنى الفقه على الكتاب والسنة ، وأبو عبد الله القاسم بن سلام حيث فسر حديث النبي ﷺ ، وأبو زكريا حيث بين الصحيح من السقيم . وقال محمد بن موسى : حمل إلى الحسين بن عبد العزيز ميراثه من مصر وكان مبلغاً عظيماً فحمل منه إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس في كل كيس ألف دينار . وقال له : يا أبا عبد الله استعن به على عيالك ، فقال : لا حاجة لي بها أنا في كفاية من الله تعالى وردها عليه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي يقرأ كل ليلة سبع القرآن ويختم في كل سبعة أيام ختمة ثم يقوم إلى الصباح وكان يصلي في كل يوم ثلثمائة ركعة . فلما ضرب بالسياط أضعفه ذلك فكان يصلي في كل يوم مائة وخمسين ركعة . وكان له في الليل ثلاث هدآت وثلاث صيحات . قال : وكان ذات يوم جالساً عند الشافعي فمرّ بهما شيبان الراعي عليه مدرعة صوف ، فقال أحمد للشافعي : يا أبا عبد الله ألا أنبه هذا الجاهل على جهله ؟ فقال له الشافعي : لا تفعل دعه في شـأنه . فقال أحمد : لا بدّ ، ثم إنه استحضر شيبان وقال له : يا شيبان ما تقول في رجل نسي صلاة من يوم لا يدري أيّ صلاة هي ما الواجب عليه أن يفعل ؟ فقال شيبان : يا أحمد هذا رجل غفل قلبه عن الله فهو ساه غافل : الواجب عليه أن يؤدب حتى لا يرجع إلى مثلها أبداً ، ثم بعد ذلك يقضي صلاة اليوم أجمع ثم التفت إليهما وقال : هل تقدران أن تردّا عليّ قال : فصاح أحمد وقال : لا والله بل هذا هو الحق ثم تركهما وانصرف . وقال إدريس : كان أحمد لا يلبس ثوباً مكفوفاً بل كان يشلله ويقور وسطه ويتركه في رأسه ويقول هذا لمن يموت كثير . قال : وكان أكثر مؤنته من نبات الأرض ويقول : هذا والله هو الحلال الذي ليس له حساب ولا تبعة . قال : وكان يوماً جالساً وعنده جماعة نساء من أصحابه فجاءت إليه امرأة . وقالت له : يا سيدي إننا جماعة نساء نقعد على سطوحنا بقطن الغزل فيمرّ بنا مشاعل أهل الشرطة أفيجوز لنا أن نغزل في ضوئها وشعاعها ، فقال لها أحمد : من أنت ؟ فقالت له : أنا أخت بشر الحافي ، فقال لها أحمد : من بيتكم خرج الورع لا تغزلي في ضوئها . وقال إدريس الحداد : لما دخل أحمد بن حنبل مكة للحج عسر عليه بعض حوائجه فأخذ سطلاً كان معه فدفعه إلى بعض البقالين رهناً على شيء يأخذه . فلما فتح الله عليه بفكاكه حضر عند ذلك البقال فدفع له ما كان له وطلب السطل . فقام البقال وأحضر سطلين على هيئة واحدة . وقال : قد اشتبه عليّ سطلك فخذ أيهما شئت . فقال أحمد : وأنا أشكل عليّ أيهما لي والله لا أخذته ، فقال البقال : وأنا لا أتركه أبداً فاتفقا على بيعه والتصدق به . قال : وكان إذا شهد جنازة لم يفطر ذلك اليوم ولم ينم تلك الليلة وكان إذا رأى قبراً يصرخ كما تصرخ الثكلى قال :

وخرج يوماً من داره فوقع نظره على امرأة مكشوفة الوجه ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحلف أن لا يخرج إلا مغطى الوجه لئلا يبصر أحداً . وكان إذا وقعت الحادثة أو المسألة لا يكتبها حتى يوردها على الفقهاء فإن وافق رأيهم رأيه كتبها وإلا تركها واستغفر الله مما خطر بباله قال : وكان من زهده وورعه إذا جف القلم بيده مسحه في رأسه ولم يمسحه في ثوبه فقيل له في ذلك فقال : أن هذا مداد أثر العلم فلا أضعه في خرقة لعلها ترمى في نجاسة .

وقال محمد بن موسى : ولد أحمد بن حنبل في سنة أربع وستين ومائة ومات وهو ابن سبع وسبعين سنة ودفن يوم الجمعة بعد الصلاة وحشر الناس لجنازته وصلى عليه محمد بن عبد الله ابن طاهر وحسبوا من صلى عليه ذلك اليوم فكانوا ثمانمائة ألف رجل وستين ألف امرأة ومسح الموضع الذي صلى عليه فيه فكان أربعاً وستين جريباً مكسرة وجلس المتوكل ، وقيل الواثق وأمر القواد والخاصة أن يعزّوه قال : وكان أحمد بن حنبل أزهد أهل زمانه وأورعهم وأفقههم وأتقاهم وأعرفهم بحديث النبي ﷺ وأخبر بصحيحها من سقيمها وأعلم برجال الحديث والصادق منهم والمنتحل وقد روى ألف ألف حديث منها بالأسانيد والمتون مائة ألف وخمسون ألفاً . وقد روي أنه لما ضرب وجرى عليه ما جرى وثبت إلى المحنة حببه ذلك إلى أهل الشرق والغرب ، ولم يزل أحمد بن حنبل بعد ذلك في رفعة وعلوّ وزيادة في أعين الناس حتى إذا رأوه كأنهم رأوا أسداً . قال : ودخل عليه مجاهد في مرضه الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فبكى وقال له : يا أبا عبد الله أوصني فأشار إلى لسانه وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ : [الصافات : ٦١] . ثم مات رحمة الله عليه :

وللحافظ المعروف بالحفظ والتقى ... فخار عليه فيالله فخر ابن حنبل
هو العلم المضروب ظلماً ولم يحل ... عن الحق يوماً من عذاب به بلي
رأى الله رب العرش تسعين مرة ... وتسع مرار هكذا صح فانقل
وقال لئن أكملتها مائة لأسألن ... وقد كان الذي فيه يأتلي
ولم يدخر قوتاً سوى قوت يومه ... وكان له في الله خير توكل
لقد فك منه عند ضرب لباسه ... ولم تبد عورات لما منه قد تلي
فهذا الذي قلناه من بعد ما جرى ... تلخص قولاً من كلام مطول
فهم علماء المسلمين وذكرهم ... إلى آخر الدنيا بغير تخزل
سقى الله رب العرش منهم مضاجعاً ... كما قمعوا عن دينه كل مبطل
وأدوا عن الله المهيمن دينه ... بأحسن أسلوب وأحلى تسلسل
إلهي كما أرشدتنا لطريقهم ... علينا إله الحق عفوك أنزل

ومِـنْ فِـتَنِ الـدنيا أجرنـا تكرمـاً ومـن كـل هـول في المعـاد مهـول

وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

المجلس الحادي والأربعون

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي رفع السماء بقدرته ، وأدار دوائر الأفلاك وبسط الأرض بمشيئته ، ومهدها للسلاك ، وسخر الفلك ومهد الملك ، ودبر الأملاك ، الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم الذي خلق الموت والحياة ، وقدر النجاة والهلاك القديم الخلاق ، الذي له الخلق والأمر ، وبيده الإطلاق والإمساك ، الذي أنشأ اللوح والقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ووهب له العقل الكامل والفهم والإدراك ، منقذ الغرقى من لجج البحار بعد معاينة الأخطار والهلاك ، ومنجي الهلكى بعد انقطاع الحيل و الاستدراك ، ومطلق الأسرى من القيود الشديدة الوثاق ، ومسعفهم بالإطلاق والفكاك ، الغني عن العباد يأمرهم بالطاعة والإيمان ، ولا يرضى لهم الكفر والإشراك ، الذي لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية ، وإنما يأمرك أيها العاصي بطاعته وعن معصيته ينهاك ، ليريك بعين يقينك ويبين لك أمر دينك ودنياك ، فراقبه واتقه واحذر من معاصيه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحافظ على الصلوات التي بها أمرك وأوصاك ، وقف بين يديه في الأسحار بالذلة والانكسار وقد جاد عليك بنعمه الغزار وبلغك مقصودك ومناك ، أما أحسن منشاك ومرباك ، أما أعزك وأكرم مثواك ، أما ألهمك رشدك وتقواك ، أما وهب لك العقل وإلى الإيمان هداك ، أما خوّلك في نعمه وأعطاك ، أما أمرك بطاعته ووصاك ، أما حذرك عن معصيته ونهاك ، أما دعاك إلى بابه وناداك ، أما أيقظك في السحر بلطيف خطابه وناجاك ، أما وعدك بالفوز والجزاء في أخراك ، أما سألته ودعوته فأجاب سؤالك ودعاك ، أما استغثت به في الشدائد فأغاثك منها ونجاك ، أما عصيته فسترك بذيل حلمه وغطاك ، أما أغضبته مراراً وأرضاك ، أفيستحق منك أن تبارزه بذنوبك وخطاياك ، ويمدك برزقه وتمد إلى معصيته خطاك ، وتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله وقد شاهدك ورآك ، إلى متى أنت غريق في بحر غيك وهواك ، إن أردت النجاة فاركب سفينة الندم واقلع بريح التوبة إلى مولاك ، وألق نفسك إلى ساحل الإخلاص وقد جاد عليك بالإخلاص ونجاك .